من لطائف اللفظ و

نوادر اللحظ

في مقاصد سورة الكهف
وقراءتها يوم الجمعة

عدنان عبد القادر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

الكويت- شارع الصحافة- مقابل مطابع الرأي العام التجارية
هاتف:٤٨١٩٠٣٧-فاكس:٤٨٣٨٤٩٥- هاتف وفاكس:٤٥٧٨٨٦٨
الجهراء: ص.ب:٢٨٨٨- الرمز البريدي:٠١٠٣٠
Website:www.gheras.Com
E-Mail:info@gheras.Com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد.

إن كل سورة من كتاب الله تعالى تتناول موضوعاً واحداً وتغطيه من جميع جوانبه، وتعرضه بأسلوب يشوق القارئ المتدبر لما يقرأ. لذا تجده إذا ما قرأ السورة يحار على أي موضع يقف ليركع إن كان مصلياً، أو يغلق الجهاز إن كان مستمعاً، أو يطوي المصحف إن كان خارج الصلاة لما يجد من ترابط بين الآيات، كالعقد الذي إن حللته تناثرت منه الدرر متتابعة.

وأغلب سور القرآن لا تخلو من قصة، وبعضها يغلب عليها الجانب القصصي، ثم غالباً ما تجد بعد كل قصة تعليقاً ينبه القارئ إلى مغزى هذه القصة. من ذلك سورة الكهف التي تقرأ كل جمعة، فقد تكللت بقصص متنوعة ولطائف بلاغية جميلة يلحظها من أنعم فيها فكره، بعد أن يتساءل ويقلب فكره رأساً على عقب.

ومن تلك التساؤلات التي تحمل وراءها لطائف جميلة:

١ - ما هو موضوع سورة الكهف؟

٢- لماذا تقرأ كل جمعة؟ وما علاقتها بالعصمة من فتنة الدجال؟

٣ - مالسر في حدوث حوادث معينة لموسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام دون أن

تستبدل قصص أخرى بدلاً منها؟

٤- ما الحكمة من تبادل كلمتي (تستطيع) و (تسطع) في قصة موسى والخضر من ناحية وكلمتي (اسطاع) و(استطاع) في قصة ذي القرنين من ناحية أخرى؟

٥ - لماذا حذفت الياء في كل من كلمتي (تعلمني) و (يؤتيني)؟ إذ وردت في قصة صاحب الجنتين ﴿يؤتين﴾ بحذف الياء بدلاً من (يؤتيني)، ووردت في قصة موسى ﴿تعلمنِ﴾ بحذف الياء بدلاً من (تعلمني).

٦ - ما الحكمة من ورود كلمة ﴿عضداً﴾ في حق مجموع الكفار بدلاً من (أعضاداً)؟

٧ - وردت كلمة (الظن) بدلاً من كلمة (اليقين) في حق الكفار في قوله الله تعالى ﴿فظنوا أنهم مواقعوها﴾ بدلاً من (أيقنوا أنهم مواقعوها).

٨- لماذا ذكرت هذه القصص في السورة ولم تذكر غيرها؟ ولم ذكرت بهذا التسلسل ؟

جمعت في ذلك جهد المقل لعل الله تعالى أن يعفو عن جامعها الذي ليس له إلا ذنوب أثقلت كاهليه.

ومن أفضل من ألف في سورة الكهف برهان الدين البقاعي في تفسيره (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور). و د. مصطفى مسلم في كتابه النافع (مباحث في التفسير الموضوعي) الذي أبدع في بيان محاور هذه السورة.

ما هو موضوع السورة

يمكن التوصل إلى موضوعها بمعرفة الموضوع المشترك بين أول السورة وآخرها، ومن خلال اسم السورة.

أ- الموضوع المشترك بين أول السورة وآخرها:

الموضوع الذي تكرر في أول السورة وآخرها هو الفتن المصاحبة للرسالة وكثرتها وشدتها وقد تجلى ذلك في أولها في موضعين:

- الموضع الأول: قوله سبحانه: ﴿لينذر **بأساً شديداً** من لدنه﴾.
- الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها **لنبلوهم** أيهم أحسن عملاً﴾.

أما في نهايتها فقد تجلى موضوعها في قوله تعالى: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾.

أما ما ورد في مقدمة السورة فقد قال الله تعالى عن كلامه وهو القرآن ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾. والإنذار هو إخبار فيه تخويف [1]. وهذا الإنذار عام موجه للمؤمنين والكفار [2]. كما قال الله تعالى عن النبي ﷺ ﴿نذيراً للبشر﴾ فهو نذير للكل. ينذر أهل الإيمان ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ وينذر أهل الكفر ﴿لينذر الذين ظلموا﴾.

(١) الراغب في المفردات.
(٢) السعدي في التفسير

أما البأس فهو الشدة والمكروه[1]. وسوء الحال والفاقة والمصائب في الأموال أو الأبدان[2].

فتلخص مما سبق معنى البأس وهو مجموع الفتن والمصائب العظيمة والشدائد والابتلاءات التي تصاحب الإيمان بهذا القرآن ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ ولما يحويه من الأوامر الشديدة والشاقة على النفوس[3]. فالقرآن ينذر ويخبر بوقوع ابتلاءات شاقة على النفوس﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس وبشر الصابرين﴾، ولكنه يقوّم من جعله منهجاً له، ويقوده إلى صراط مستقيم لا اعوجاج فيه ﴿ولم يجعل له عوجاً قيماً﴾. فمن صبر عليها فله البشارة من الله تعالى ﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً﴾.

أما من كفر وأعرض فلا بشارة له، بل يصاحبه الإنذار وتلازمه العقوبات ويحيط به الخوف في الدور الثلاثة: الدنيا والبرزخ والآخرة﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾.

وهذه الفتن والمشاق التي يبتلى بها العبد ما هي إلا عوارض زائلة يبتلى بها خلال فترة زمنية محددة، لذا فلا تستحق أن يجعلها العبد غاية له بل يجعلها

---

(١) الراغب في المفردات.
(٢) نظم الدرر (١ / ٣٢٣، ٣٩٦).
(٣)التفسير القيم (١٢٧ - ١٢٨).

ثمناً للآخرة ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾.

أما في آخر السورة فقد ذكر الله تعالى ما بيّنه في بدايتها من كثرة الفتن وشدتها وبلوغها القمة في شيوع الاضطراب ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور﴾ والموج هو الاضطراب. فالناس فيها صنفان:

إما خاسر في مواجهة الفتن ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا، الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾ ومصيرهم جهنم﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾.

وإما فائز ناجٍ استمع لكلام ربه الذي أنزله على رسوله ﷺ ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً﴾ فاشتاق لرؤيته، فعظمه وخضع له، واستجاب لتحذيراته من الوقوع في الفتن فاستحق البشارة﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها﴾. وأعظم هذه البشارات الالتقاء بربه والنظر إلى وجهه الكريم ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾. فبدأ بعلاقته مع ربه بسماع كلامه ثم أثابه بالنظر إلى جماله والتمتع بنور وجهه الكريم. فأوله كلامه وآخره التمتع برؤيته والفوز بغاية الجمال.

ونحن في استطاعتنا لعظمتنا وجلالنا أن نذكر لكم قصصاً أخرى كثيرة تتضمن

حكماً باهرة، ولكنكم لا تطيقون سماعها. يفنى عمركم ولا يفنى كلام الله سبحانه، إذ لو جعل البحر مداداً وحبراً لكتابة كلامه سبحانه لنفد البحر وما نفد كلام الله تعالى.

ولكن عليكم بهذه الكلمة الأخيرة الجامعة النافعة التي تلخص كل ما سبق، وهو أن يعمل العبد عملاً صالحاً مشروعاً يحبه الله تعالى، لا مما ابتدعته عقول الناس وعواطفهم، ولكن مما شرعه الله تعالى في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ثم يخلص فيه لله وحده. ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ فستتوالى عليكم البشارات كاملة تامة وتنجون من كل الفتن بإذن الله تعالى.

ب - اسم السورة:

قال د. مصطفى مسلم:

«لو نظرنا إلى هذا الاسم وإلى موضوعات السورة، لوجدنا بين الاسم والموضوعات مناسب لطيفة. إن الموضوعات المعروضة في هذه السورة الكريمة من تدبرها ولجأ إليها كانت له كالكهف الحصين من الفتن جميعها، كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ، فإن كان الوضع الذي لجأ إليه الفتية كهفاً محسوساً ملموساً، فإن الكهف الذي يلجأ إليه قارئ هذه السورة كهف معنوي من عناية الله سبحانه وتعالى وحفظه وستره فلا تؤثر فيه الفتن المعروضة ولو كانت مثل قطع الليل المظلم»[1]

(١) مباحث في التفسير الموضوعي (١٧٩).

الحكمة من قراءة سورة الكهف يوم الجمعة

ما الحكمة من قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ؟

ولماذا يضاء لقارئها يوم القيامة نور طوله مسيرة أسبوع ؟

في الأثر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» [1] . أي مسيرة ما بين الجمعتين ، فيضاء له من النور يوم القيامة مسافة ما يقطعه الراكب في أسبوع كامل .

فما الحكمة ؟

وما علاقتها بالعصمة من فتنة الدجال ؟ إذ روى مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «من حفظ أول عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » ، وفي رواية (من قرأ) . وكذلك روى مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف »، وزاد أبو داود «فإنه جواركم من الفتنة » .

موضوع سورة الكهف هو التحذير من جميع أنواع الفتن التي ربما يتعرض لها العبد في دنياه وخاصة الدعاة إلى الله تعالى . وهذه الفتن ست وهي كالتالي :

١ - فتنة القهر والظلم والتضييق بسبب تمسكه بدينه ودعوته .

٢ -فتنة حبه مجالسة أهل الشرف والمال .

٣ -فتنة الشهوات الدنيوية من مال وولد ونساء .

٤ -فتنة الفخر بأصله والطعن في أنساب الآخرين .

---

(١) رواه سعيد بن منصور .

٥ - فتنة العلم .

٦ -فتنة المنصب والرئاسة .

وتفصيل ذلك كما يلي :

١ - فتنة القهر والظلم :

فالعبد المسلم الداعية إلى الله تعالى يتعرض للتضييق بسبب تمسكه بدينه فيستهزأ به ، ويظلم وربما يسجن ويضرب ، فيجب أن لا يرده ذلك عن دينه ، كقصة أصحاب الكهف الذين ظلموا وضيق عليهم بسبب أنهم : ﴿ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ . فربط الله على قلوبهم وفرّوا من قومهم حفاظاً على دينهم ﴿فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيِّئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ . فإذا ما نجا العبد منها ربما يتعرض للفتنة الثانية وهي :

٢ - فتنة حب مجالسة أهل الشرف والمال :

ذلك أن أغلب أتباع الأنبياء هم الضعفاء والمساكين ، ﴿ قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ . وقال هرقل لأبي سفيان عن الضعفاء والفقراء : (هؤلاء هم أتباع الرسل) رواه البخاري . فقد يأنف من مجالسة أهل الدين وعن حضور مجالس العلم لكثرة الفقراء والضعفاء فيها ، فيتركها ويفضل مجالس أهل الشرف والمال التي يغلب عليها المفاخرة والفساد - إلا من رحم الله . فعندما يقال له : من أين أتيت ؟ يجيب : من مجلس ذلك المسئول ، أو صاحب الأموال ، وقد خاطبني اليوم ، وأكلت معه ، ولاطفني ذلك الشريف . بينما

أنت من أين أتيت ؟ أليس من مجلس الفقراء والضعفاء الذين لا يؤبه لهم وهم نكرات في المجتمع ؟ فما الذي استفدته ؟

فهذه الفتنة مدعاة لترك الدعوة والطاعة والعلم والذكر فيفتتن بها . قال الله تعالى بعد قصة أصحاب الكهف : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ فخالطهم بجسدك وروحك ، لا تفارقهم عيناك ، فإياك أن تلتفت عنهم ، ولا تقل أني قد خالطتهم بجسدي فلا مانع من أن تلتفت عيناي إلى الأغنياء !! إياك إياك .

﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ أي تريد الأغنياء وأهل الشرف من أهل الفسق ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ . قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل ورجلان فقال المشركون للنبي ﷺ : أطرد هؤلاء ، لا يجترئون علينا . فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ .[1]

والملحظ في الآية قوله تعالى ﴿ واتبع هواه ﴾ ولم يقل سبحانه (فاتبع هواه) . لأن اتباع الهوى لم يكن بعد أن أغفل الله قلبه عن ذكره فقط . وإنما هو بنفسه اتبع هواه فكان السبب منه ، فأغفل الله قلبه عن الذكر عقوبة له ، فازداد بعده اتباعاً لهواه ، فحصل اتباع الهوى قبل وبعد اغفال قلبه . وهذا كقوله تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ، وكقوله سبحانه ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ أي بسبب كفرهم طبع

---

(١) رواه مسلم .

الله عليها . أما لو كانت (فاتبع هواه) لفهم منه أنه عوقب بإغفال قلبه قبل أن يقع منه ما يستوجب العقوبة . وما اتبع هواه إلا لأن الله تعالى أغفل قلبه . بينما الصحيح أنه لما زاغ بنفسه وكفر واتبع هواه أغفل الله قلبه وأزاغه عقوبة إلهية . فاستكمل بعدها طريق الزيغ واتباع الهوى . فقال سبحانه ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾ فالواو لا تفيد الترتيب ، فهو اتبع هواه قبل الإغفال فعوقب بإغفال القلب واستمر باتباع الهوى .

ثم قال الله تعالى مرغباً في مجالسة أهل الطاعة والدعوة ، ومرهباً من مجالسة الفساق والفجار من أهل الشرف والغنى ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ . فالمرء يحشر مع من أحب ، فهل تحب أن تحشر معهم يوم القيامة حينما يؤمر بهم إلى النار ؟ المرء في الدنيا لا يحب أن ينتسب إلى من ارتكب جريمة شنيعة ولو كان أخاه بل يتبرأ منه ، فكيف بك يوم القيامة عندما ينادى بالفاجر المتكبر من أهل الشرف والغنى على رؤوس الخلائق ، فيؤتى كتابه بشماله ، ويقال للملائكة بصوت يسمعه الخلائق : ﴿خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ ، فيسلسل ويكبل بالسلاسل ، ويسحب على وجهه ، ويحبس إلى أن يجتمع مع أمثاله ﴿أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي أمثالهم . فهل تحب أن تحشر مع هؤلاء ؟

وبعد اجتماعهم يدفعون دفعاً إلى نار جهنم ويساقون إليها ، ثم يكبكبون فيها ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ . حينئذ

تحتج الجنة والنار، فتقول الجنة: يدخلني الضعفاء والمساكين . وتقول النار : يدخلني الجبارون والمتكبرون [1] .

فتغلق عليهم أبواب جهنم إغلاقاً محكماً ، وزيادة في العذاب النفسي يرى الأعمدة الممددة تُحكم إغلاقها ﴿إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة﴾ فلا يرى إلا الحوائط حوله ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ أي حوائطها . وإذا ما استغاث بالماء ليخفف من حرارة الهول يغاث ﴿ بماء كالمهل﴾ كالزيت الذي اشتد غليانه ، إذا ما قربه إلى فمه ليرتشف منه انشوت جلدة وجهه فتساقطت ﴿يشوي الوجوه﴾، والمرء يحشر مع من أحب بلا اختيار منه ، فهل تحب أن تحشر معهم ؟

وفي المقابل هؤلاء أهل الإيمان في الدنيا سواءً كانوا فقراء أو ضعفاء أو غيرهم فإنهم يُستقبلون يوم القيامة استقبالاً حافلاً فتتلقاهم الملائكة، وتهوّن عليهم ، ويجعل لهم منابر من نور في ظل عرش الرحمن، ويشربون من حوض النبي ﷺ يسقيهم بيده الشريفة، ويستقبلون استقبال الوفود ذوي المكانة ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ . ألا تحب أن تحشر مع هؤلاء ؟

فالجزاء في الآخرة موافق لعملك الدنيوي حيث كنت ترتع في رياض الذكر والدعوة والعبادة ، وكذلك في الآخرة في رياض ورحاب الرحمن . فيرشدون إلى الجنة ، وتعرّفهم الملائكة بأماكنهم ومواضعهم ، وتسلم عليهم من كل ناحية ﴿أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من

---

(١) رواه مسلم.

أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ . إذ لم يقل المولى «من تحتها» وإنما قال ﴿من تحتهم﴾ للدلالة على اجتماعهم في الجنة وتزاورهم على ضفاف الأنهار كما اجتمعوا وتزاوروا في الدنيا على ضعفهم وفقرهم ، وقدموا مجالس أهل الإيمان وزياراتهم على مجالسة أهل الفسق والفجور من الطبقة المخملية .

وقال تعالى ﴿من أساور من ذهب﴾ ولم يقل (أساور من فضة) إذ أنهم بعد فقرهم وتصبيرهم على هذه المجالس ، وتركهم لمجالس الأغنياء أصحاب الذهب والغنى والتجارات والأموال وأنواع الحلي النفيسة ، حصلوا في الآخرة على أنفس الأمول والحلي ﴿من أساور من ذهب﴾ثم أنفس اللباس وهو من الحرير بجميع أنواعه الرقيق والغليظ ﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق﴾ولأن تعلق القلوب بالذهب أكثر من تعلقها بالحرير فقدم الذهب على الحرير .

ولزيادة الإكرام والفخر لهم يوم القيامة هو أن يحلى بالحلي من قبل غيره ، كما يحلي الحبيب حبيبه في يده بأنواع الحلي . بينما يلبس الإنسان ثوبه بنفسه . قال النيسابوري : «لأهل الجنة لباسان . لباس التحلي ولباس الستر ، فلم يسم الفاعل للتعظيم وهو الله جل وعلا ، أو الملائكة بإذنه»[1] .

ثم لجمال الذهب على الجلد الأبيض أعظم من جماله على الثياب قدم على ذكر

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري (١٥ / ١٤٨) ونحوه للشهاب (٦ / ١٧٢) .

الثياب، لئلا يفهم أن الذهب على الثوب بل على الجلد ليزداد جمالاً . وهذا يختلف عن الفضة التي جمالها على الثوب أعظم. قال الريان : « إذا ذكرت الأساور قبل اللباس كانت ذهباً، وإذا ذكرت بعد اللباس كانت فضة، والحكمة فيه أن لون الفضة هو البياض وهو أحسن على الخضرة، والذهب لونه لحمرة ، فتكون الحمرة هي الأصل، الخضرة طارئة عليها»[1].

فهذه الفتنة الثانية، وهي عدم ترك مجالس الذكر والعبادة مع الضعفاء من أجل مجالس الفخر والخيلاء لأهل الشرف والغنى . فإن نجا العبد منها فقد يتعرض للفتنة الثالثة وهي :

٣ - فتنة شهوة المال والولد والنساء :

كثيراً ما يصد المال صاحبه عن عبادة الله تعالى ، فينشغل بماله عن أداء الواجبات ، أو يبخل به عن أداء الحقوق ، ويؤدي به إلى الكبر والغرور، وكذا يفعل الولد والنساء وكثرة الأتباع . ذكر الله تعالى قصة صاحب الجنتين الذي جمع الشهوات المذكورة فافتتن بكثرة المال والولد والنساء والأتباع ، فقال للمؤمن الفقير : ﴿ أنا أكثرمنك مالاً وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾، فذكّره المؤمن ونصحه بشكر الله على نعمه وآلائه، فأعرض المفتون عن الذكرى فهلكت أمواله وتفرق الأتباع عنه ﴿ولم تكن له فئة

(١)الروض الريان (١ / ٢٢٣)

ينصرونه من دون الله ﴾ بينما احتسب المؤمن ما عند الله من الخير والنعيم ، وثبت على دينه ، فهي العاقبة الحقيقة ﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً﴾ .

هذه الحادثة صورة مصغرة لما سيحدث له بعد وفاته ويوم يبعث . ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ فلا تصدنك هذه الشهوات عن طاعة الله تعالى ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا﴾ حيث تأتي يوم القيامة صفر اليدين عارياً حافياً كما ولدت من رحم أمك وقد تخلى عنك المال والولد والزوجة ﴿وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ . فإذا ما نجوت من الفتنة الثالثة فقد تتعرض للفتنة الرابعة وهي :

٤ - فتنة الفخر بالنسب :

الفخر بالنسب والطعن في أنساب الآخرين من الأمور التي تقطّع الأمة (الجماعة) الواحدة وتؤدي إلى تأصيل العداوة بين أفرادها بل إلى الاقتتال فيما بينهم وعدم الإلتقاء ، وهذا هو الذي يحلق الدين ، كما قال النبي ﷺ : (إن فساد ذات البين هي الحالقة)، وقال : (لا أقول إنها تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)[1] . لذا قال النبي ﷺ : (اثنتان في الناس هما بهم كفر، الطعن في النسب والنياحة على الميت) [2] .

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني .

(٢) رواه مسلم .

ثم الفخر بالنسب والطعن في الآخرين سبب لعدم متابعة الطرف الآخر كبراً وغروراً ولو كان محقاً ، وهذه كانت فتنة إبليس الفخر بأصله . قال الله تعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ . إذ تكبر إبليس على آدم وقال : ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ ، فاحتقر آدم لأن أصله من طين ، وفخر بأصله من النار متكبراً قائلاً لله تعالى : ﴿ءأسجد لمن خلقت طيناً ، قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي؟!﴾ فكان الفخر بأصله من أسباب كفر إبليس وتمرده على أوامر الله تعالى .

كما كان هذا السبب في تمرد كفار قريش على النبي ﷺ وكفرهم به ﴿وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ . وقال أبو جهل المخزومي : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء !! فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

فإذا ما نجا العبد من الفتنة الرابعة فقد يتعرض للفتنة الخامسة وهي :

٥ - فتنة العلم :

فالادعاء لنفسه بأنه أعلم الناس وأعلم أهل زمانه قد يؤدي به إلى ازدراء علم الآخرين ورد الحق وعدم الإنتصاح بنصيحتهم ، وعدم الإذعان لما عندهم من العلم وإن كان صواباً ، وقد يؤدي إلى التحاسد والتباغض بين العلماء ومن ثم

إلى تمزق الأمة وتشتتها ثم إلى وهنها ، وقد يؤدي بصاحبه كذلك إلى الغرور وفساد الخلق، أو قد يشتري بعلمه دنياه ويبيع آخرته ، لذا قال مالك بن دينار عن العلماء الحُسَّاد : « إني وجدتهم أشد تحاسداً من التيوس بعضها على بعض! »[1] وقد يؤدي بصاحبه إلى أن يشتري بعلمه دنياه ويبيع آخرته كبلعام بن باعورا.

فقص الله تعالى علينا قصة موسى والخضر ، وملخصها في الحديث النبوي أن موسى عليه السلام وقف خطيباً في بني إسرائيل فوعظهم وأبكاهم ، فقام إليه رجل وقال : يا نبي الله . من أعلم الناس ؟ فقال موسى : أنا . فعاتبه الله تعالى . لماذا لم يرجع العلم إلى الله تعالى فيقول : الله أعلم . ثم بين له أنه يوجد من هو أعلم منه عند ملتقى البحرين . فالتقى به موسى وتواضع له حيث قال : ﴿على أن تعلمنِ﴾ بحذف ياء المتكلم ولم يقل : « على أن تعلمني » بإثبات الياء.

وفي القصة تبين أنه قد غاب عنه العلم في عدة أمور منها: قصة أصحاب السفينة والغلام وجدار القرية . وجميع هذه الحوادث قد حصلت لموسى بصورة مشابهة لها ، وبالرغم من ذلك لم يتوصل موسى عليه السلام إلى أهداف أفعال الخضر بل أنكر عليه ، ثم بين له الخضر الغايات العظمى لأفعاله . فتبينت لموسى حينئذ .

---

(١) جامع بيان العلم ٤٤١.

فإذا ما نجا العبد من فتنة العلم فإنه قد يتعرض لفتنة سادسة وهي :

٦ - فتنة المنصب :

فالمنصب غالباً ما ينسي العبد ذكر الله تعالى، إما لانشغاله به ، أو لما يصيبه من الغرور والطغيان ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾، أو لخشية زوال المنصب فيراقب مرضاة الخلق ليعينوه على المحافظة عليه بدلاً من مراقبة الله تعالى. ذكر الله تعالى قصة أفضل الملوك الصالحين وهو ذو القرنين الذي ملك مغرب الأرض فابتلاه الله تعالى اختباراً إذ جعل له مطلق الحرية في التصرف بأهل تلك البلاد فقال : ﴿أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى ﴾ فنجح في الاختبار ثم ملكه الله تعالى مشرق الشمس ، ثم ما بينهما ، فأعان أهل تلك البلاد على التخلص من فساد يأجوج ومأجوج . واستمر في طاعة الله تعالى ولم يغره المنصب ولم يضله ويطغه ، بل قال : ﴿هذا رحمة من ربي﴾ ، واستخدم المنصب في نشر الدعوة وشكر الله تعالى والإصلاح في الأرض والقضاء على الفساد .

فهذه هي جميع أنواع الفتن التي قد يتعرض لها العبد في دنياه إلى قيام الساعة ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾، ثم مصير من غرق في تلك الفتن ﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾، ومصير من آمن ولفظ الفتن واستعان بالله تعالى عليها ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا، خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾.

فتنة الدجال

فتنة الدجال من أعظم الفتن ، كما قال النبي ﷺ : (يا أيها الناس، إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم فتنة من الدجال ، وإن الله عز وجل لم يبعث نبياً إلا حذر أمته من الدجال)[1] .

بل تجتمع فيه كل أنواع الفتن الست :

١ - فتنة القهر والظلم :

إذ يقدم الدجال على تعذيب من لم يتبعه ليجبره على الإيمان به . روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يأتي الدجال ، وهو محرّم عليه دخول نقاب (مداخل) المدينة . فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل من المؤمنين هو خير الناس أو من خيار الناس فتلقاه المسالح : مسالح الدجال (قسم المراقبة من جيش الدجال) فيقولون له : أين تعمد؟ فيقول : أعمد إلى هذا الذي خرج . فيقولون له : أوما تؤمن بربنا ؟ فيقول : ما بربنا خفاء . فيقولون له : اقتلوه . فيقول بعضهم لبعض : أليس قد نهاكم (الدجال) أن تقتلوا أحداً دونه ؟ فينطلقون به إلى الدجال ، فإذا رآه المؤمن قال : يا أيها الناس ، هذا المسيح الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ . أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه . فيأمر به الدجال فيشبح (يمد على بطنه)، فيقول : خذوه وشجوه (اضربوه ضرباً يجرحه ويشق جلده)، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً . فيقول : أوما

---

(١) رواه ابن ماجه وصححه ابن خزيمة والحاكم والألباني .

تؤمن بي ؟ فيقول : أنت المسيح الكذاب . فيؤمر به، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون له: لا . فيؤمر به ، فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه ، ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له : قم ، فيستوي قائماً . ثم يقول : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة . ثم يقول (الشاب) : يا أيها لناس ، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس . فيأخذه الدجال ليذبحه . فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً . فلا يستطيع إليه سبيلاً . فيأخذ (الدجال) بيديه ورجليه، فيقذف به . فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار ، وإنما ألقي في الجنة . فقال رسول الله ﷺ : هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين) [1].

٢ - فتنة الشرف بالانتساب إليه :

حيث يسيطر الدجال على الأرض بسرعة ويملكها إلا مكة والمدينة، ويتبعه أكثر أهل الأرض ويعبدونه . ويملك كنوز الأرض ، فيرى أهل الباطل العزة بالإنتساب إليه ومتابعته .

ومما يدل على **سيطرته على الأرض وانتصاره عليها** ما رواه أبو أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه، وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة) [2].

(ظهر عليه) : أي انتصر عليه .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) صححه ابن خزيمة والألباني .

ومما يدل على **سرعة الانتصارات** قوله ﷺ : (كالغيث استدبرته الريح) [١] .
ومما يدل على **كثرة أتباعه** ما رواه أنس رضي الله عنه أن رسول الله رضي الله عنه قال : (يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة) [٢] .

و عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (ينزل الدجال في هذه السبخة بمر قناة (واد في طرف المدينة) فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتى إن الرجل يرجع إلى حميمه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه) [٣] .

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «من سمع بالدجال فلينأ عنه (ليبتعد عنه) فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث من الشبهات» [٤] .

أما **ملكه كنوز الأرض** فقد روى النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عن الدجال : (ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل) [٥] .
(كيعاسيب النحل : كحال اجتماع ذكور النحل عند محاولتها تلقيح الملكة) .
وبعض أوامره جارية على السماء والأرض بمشيئة الله تعالىٰ فقد قال ﷺ عنه : (فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت)[٦] . هذا لمن أطاعه . أما من كفر به فإنه

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه أبو داود وصححه الحاكم والألباني .
(٥) رواه مسلم .
(٦) رواه مسلم .

(ينصرف عنهم فيصبحون ممحلين . ليس بأمرهم شيء من أموالهم)[1] .
(ممحلين) : أي انقطعت عنهم الأمطار ويبست أراضيهم .

٣ - فتنة المال والشهوات :

يرغب الدجال من تابعه بالمال وبتمليكه كنوز الأرض ، بينما يحذر من خالفه وأعرض عنه بالفقر والقحط .

روى النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عن الدجال : «يأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ويستجيبون له . فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم ، أطول ما كانت ذرىً (أعلاهم سناماً) وأسبغهم ضروعاً (أطولهم ضروعاً لكثرة اللبن) ، وأمده خواصر (لامتلاء الخواصر من الشبع) ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين (مجدبين قد قحطوا) ، ليس بأمرهم شيء من أموالهم . ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل» (جماعات النحل)[2] .

٤ - فتنة الأصل والنسب :

ومن فتنة الدجال أن يغري الإنسان بنسبه، وأن أصلك ونسبك - وهما والداك - يأمرانك باتباعه . روى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عن الدجال : «وإن من فتنته أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك . أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه وأمه . فيقولان : يا بني اتبعه . فإنه ربك»[3] .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣)صححه ابن خزيمة والألباني .

٥ - فتنة العلم :

حيث يتميز الدجال بالعلم الواسع ، من ذلك :

معرفة مواضع الموارد المالية والإقتصادية فيستخرجها من الأرض التي لا يتوقع وجودها فيها . قال ﷺ : (ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك . فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل)[١] .

ومنها **العلوم المتقدمة** كالعلوم التي تطور وسائل النقل حيث يتنقل بتقنيات عالية متطورة سريعة . يقول ﷺ عن حركته وسرعة انتقاله على وجه الأرض : (كالغيث استدبرته الريح)[٢] .

ومنها **العلوم العسكرية** حيث يتميز بمعرفة العلوم الحربية والخطط للانتصارات المتوالية ، فبالرغم من تطور العلم الحديث إلا أن خططه وانتصاراته تفوق الخطط الحديثة ، لذا قال ﷺ : (لا يبقى شيء في الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة لا يأتيهما من نقب من أنقابها إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتاً)[٣] .

ومنها **قوة التلبيس في طرح الشبهات** . قال ﷺ : «من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات» [٤] .

٦ - فتنة المنصب :

وهو ظهور الدجال على الأرض وانتصاراته المتوالية على البلاد التي يطؤها

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) صححه ابن خزيمة .

(٤) رواه أبو داود وصححه الحاكم والألباني .

فيصبح قوة ضاربة في الأرض يملك كثيراً من البلاد ويقودها . قال ﷺ : (لا يبقى شيء في الأرض إلا وطئه وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة)[1] . فيجعل عليها ولاته وأمراءه . مما يغري الناس لمتابعته للحصول على تلك المناصب .

(١) صححه ابن خزيمة .

العلاقة بين سورة الكهف والعصمة من فتنة الدجال

تبين مما سبق أن سورة الكهف جمعت كل أنواع الفتن وذكرت كيف يتحصن العبد منها ، والدجال اجتمعت فيه كل الفتن الست المذكورة . فإذا ما قرأها المسلم كل جمعة فإنه يحصن نفسه من الافتتان به ، وهكذا كل جمعة يبني صرحاً من عصمة الله تعالى له من فتنة الدجال ، فإذا ما خرج الدجال وعرض متابعته والإيمان به على قارئ سورة الكهف ، فإنه لن يستجيب له، فإذا ما ضربه وشجه وهدده بإلقائه في ناره ، فإن لسان حال المسلم يقول له : كنت أقرأ سورة الكهف يوم الجمعة وقرأت فيها قصة أصحاب الكهف الذين لم يردهم القهر والظلم عن دينهم والحق الذي هم عليه ، وأنا كذلك بإذن الله تعالى .

وإذا ما رغبه بالإنتساب إليه وأنه الآن أكثر تابعاً وأنه يملك الأرض، فإذا ما آمن به إزداد عزاً وشرفاً لأنه ينتسب إلى الدجال، رد عليه المؤمن بأنه كان يتحصن من هذه الفتنة بقراءة قوله تعالى : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي﴾ من سورة الكهف كل جمعة .

وإذا ما رغبه بالمال الكثير وكثرة الحاشية والولد، رد عليه المؤمن بأنه كان يتحصن من هذه الفتن بقراءة قصة صاحب الجنتين من سورة الكهف كل جمعة، وأن هذا لا بقاء له ، بل مآله إلى زوال وعذاب وعقوبة .

وإذا ما عرض عليه أن يحيي له أصله وهما والداه ، وقد كذب وإنما شيطان يتمثل له في صورتيهما ، فيدعوانه إلى الإيمان بالدجال ويزعمان أنه ربه ، رد

عليه المؤمن بأنه كان يتحصن من فتنة الأصل والنسب أن تكون سبباً للضلال بقراءة قصة إبليس من سورة الكهف كل جمعة، وأن المصير إليها يودي به في نار جهنم وبئس المصير .

وإذا ما عرض عليه تزويده بالعلم الحديث والتقنيات المتطورة ومعرفة علومها وغير ذلك من العلوم ، رد عليه بأنه كان يتحصن من هذه الفتنة بقراءة قصة موسى عليه السلام والخضر عليه السلام من سورة الكهف، وأن العلم النافع هو العلم الذي يزيد من عبودية العبد لله تعالى، ويؤدي إلى إصلاح أهل الأرض والقضاء على الفساد .

وإذا ما عرض عليه المنصب وتولي الولايات والإمارة للبلاد التي ملكها الدجال مقابل الإيمان به ، رد عليه بأنه كان يتحصن من أن يكون المنصب سبباً للضلال بقراءة قصة ذي القرنين الذي ما افتتن بمنصبه بل استعمله في طاعة الله تعالى فبارك الله له فيه .

وهكذا يتحصن من كل فتن الدجال بإذن الله تعالى بقراءته سورة الكهف كل جمعة فلا تغيب عن ذهنه . ولذا يحرص الدجال في نهاية الأمر أن يقتله قتلاً نهائياً فلا يسلط عليه ، وإذا ألقاه في ناره فإنها الجنة كما قال النبي ﷺ في حديث حذيفة رضي الله عنه عن الدجال: (معه نهران يجريان ، أحدهما رأي العين ماء أبيض ، والآخر رأي العين نار تأجج ، فإما أدركن أحد ، فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض ثم ليطأطئ رأسه ، فيشرب منه ، فإنه ماء بارد)[1]. وفي رواية أخرى : (معه جنة ونار ، فناره جنة ، وجنته نار)[2].

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

لماذا يوم الجمعة ؟

خروج الدجال من العلامات الكبرى لقيام الساعة كما قال النبي ﷺ : (إن الساعة لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات : الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)[1].

والساعة تقوم يوم الجمعة . إذ روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق الله آدم، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)[2].

وفي نهاية السورة ذكر الله تعالى قصة يأجوج ومأجوج الذين هم من علامات الساعة الكبرى كما في الحديث ، وبين الله تعالى فيها أنهم يخرجون في نهاية الدنيا فقال الله تعالى بعد بناء سدهم ﴿هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً ﴾.

فالمناسبة ظاهرة بين قراءة سورة الكهف والعصمة من فتنة الدجال الذي هو من علامات الساعة الكبرى التي تقوم يوم الجمعة .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) صححه الترمذي والحاكم .

النور وقراءة سورة الكهف

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»[1] .

ما العلاقة بين قراءة سورة الكهف والنور يوم القيامة ؟

قال النبي ﷺ : « تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أشربها (أحبها وسارع إليها واستجاب لها) نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : أبيض مثل الصفا ، لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجخِّياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه »[2] .

(المرباد) : هو الأسود المغبر . و (مجخياً) : أي منكساً .

فإذا ما أنكر القلب الفتن التي يفتن بها من قهر وظلم وحب الانتساب إلى أهل الشرف والشهوات والمعاصي من مال ونساء والفخر والخيلاء والتعالي بعلمه وفتن المنصب، فإن القلب يُضاء فيه النور ، فيصبح « أبيض كالصفا »، فينعكس ذلك على وجهه كما قال تعالى في هذا الصنف : ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال

(١) رواه سعيد بن منصور .
(٢) رواه مسلم .

للناس والله بكل شيء عليم﴾ .

قال العلماء : مثل نوره في قلب العبد المؤمن كمشكاة فيها مصباح . ووصف الله تعالى هذا النور بأنه مكون من ثلاثة أنوار :

١ - **نور الزجاجة** : ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ كأنها كوكب يتلألأ إضاءة ونوراً . والزجاجة هي واجهة المصباح وهي وجه المؤمن .

٢ - **نور الزيت** : ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ وهو وقود المؤمن ، أي إيمانه وتقواه وعبودية قلبه لله تعالى ومحبته وخضوعه وإستسلام قلبه لمولاه .

٣ - **نور المصباح** : ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾ وهو نور قلبه وجوارحه .

فاجتمعت فيه الأنوار الإلهية الثلاثة ﴿نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾ .

بينما المعاصي تسود القلب والوجه (أسود مربادّا) ، وتجعله مظلماً بسبب ظلمة القلب الذي امتلأ بظلمات المعاصي ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ .

قال أحد الصالحين : ذهبت إلى عثمان بن عفان وفي الطريق رأيت جارية فأعجبتني ، فنظرت إليها وأطلت النظر ثم دخلت على عثمان فقال : يدخل عليّ أحدكم والزنا في عينيه .

فقلت : سبحان الله ، هل أنزل الوحي على أحد بعد رسول الله ﷺ .

فقال : لا ، ولكن فراسة صادقة . إذ رأى في وجهه ظلمة لم يكن رآها من قبل .

لذا فالعبد المؤمن الذي تمسك بأوامر الله تعالى واجتنب نواهيه ونجا من الفتن ،

ولفظها قلبه ، فإن الله تعالى يكرمه بنور القلب والوجه في الدنيا وبنور في القبر، ثم بالنور الذي يعطاه عن يمينه يوم القيامة في أرض المحشر فيضئ له طريقه في أرض حالكة الظلام ويجوز به على الصراط ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ . فينطفئ حينئذ نور المنافقين، فيستغيث المؤمنون بربهم ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا﴾ ويختلف المؤمنون في أنوارهم (فيعطون على قدر أعمالهم :

فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه

ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك

ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه

ومنهم من يعطى نوره دون ذلك بيمينه

وآخر من يعطى نوره على قدر إبهام قدمه يضئ مرة ويطفأ مرة . إذا أضاء قدم قدمه وإذا أطفئ قام)[1] .

ثم يقال لهم : امضوا على قدر نوركم .

فمنهم من يمر كطرف العين وكالبرق

ومنهم كانقضاض الكوكب

ومنهم من يمر كالريح

ومنهم كمر الطير

ومنهم كأجاويد الخيل والركاب

---

(١) رواه مسلم.

ومنهم كشد الرجال (يرمل رملاً) .

ومنهم كمشيهم

ومنهم من لا يستطيع إلا زحفاً

حتى يمر آخرهم يسحب سحباً ، ويتلبط على بطنه . تخرّ يد وتعلق يد وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار .

أما قارئ سورة الكهف فإنه يعطى نوراً طوله كطول المسافة المقطوعة على ظهر الخيل الجواد الذي جرى من الجمعة إلى الجمعة ، أي مدة جريه أسبوع كامل ، وهي المسافة من المدينة إلى مكة . لذا قال في الرواية الأخرى : (ما بينه وبين البيت العتيق)[1] . والكلام صادر في المدينة ، فبقدر طول هذه المسافة المقطوعة يعطى قارئ سورة الكهف نوراً يضئ له ويسير به على الصراط المضروب على ظهر جهنم ـ وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف . فباجتناب الفتن الست المذكورة في السورة يكرمه الله تعالى بنور القلب وصفائه وبياضه فيجتنب فتن الدجال الست ، ويعطى نوراً يوم القيامة طوله أسبوع كامل .

(١) رواه سعيد بن منصور .

من لطائف سورة الكهف

١ - ما الحكمة من تسلسل القصص

هل من حكمة لتسلسل القصص بالترتيب المذكور: بدأت بقصة الكهف ثم قصة صاحب الجنتين ثم إبليس ثم موسى عليه السلام و الخضر عليه السلام ثم قصة ذي القرنين؟ لِمَ لَمْ تتسلسل بترتيب آخر؟

إن تسلسل القصص في السورة فيه إشارة وتنبيه لما سيحدث للنبي ﷺ. قال د. أحمد حسن فرحات: « قصة أصحاب الكهف تشير إلى خروج النبي ﷺ مهاجراً من بلده مكة فراراً بدينه ثم تحصل له عدة أمور ظاهرها شر وحقيقتها خير كثير ومصلحة كبرى والإشارة إليها بقصة موسى عليه السلام ثم سيفتح الله تعالى الدنيا للنبي ﷺ والأمة والإشارة إليه بقصة ذي القرنين. إذ ستملك هذه الأمة المشرق والمغرب »[1].

وللزيادة في البيان إليك ما يلي:

أ- بدأت السورة بقصة أصحاب الكهف الذين خرجوا من بلادهم وهاجروا فراراً بدينهم، فهذا ما سيحصل لك يا رسول الله. إذ ستخرج من مكة مهاجراً فاراً بدينك، وستأوى أنت وأصدق أصحابك وأخلصهم إلى كهف- وهو غار ثور - كما أوى الفتية إلى الكهف.

(١) ذكرها فضيلته في محاضرة له عندما كنت طالباً عنده في مادة علوم القرآن.

وهم مكثوا ثلاثمائة سنة شمسية، بينما أنت تمكث ثلاث ليال شمسية (كما في رواية البخاري) وينجيك الله تعالى من الكفار كما نجاهم. وتصبح سراجاً منيراً للدنيا، نوراً للعالمين، هادياً للبشر. ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ ﴿لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾. فيكون لك دور كبير في اصلاح البشر أكبر من دور أصحاب الكهف في هداية أهل مدينتهم وتيقنهم من البعث وقيام الساعة حين دب الخلاف بينهم في شأنها، فبعد أن رأوا أصحاب الكهف وأنهم بعثوا بعد ثلاث مائة سنة، آمنوا بالبعث ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾.

ثم تبني بيدك الشريفة وبمشاركة أصحابك مسجداً عظيماً، يؤسس على التقوى بعد خروجك من الكهف أعظم من المسجد الذي بناه أهل المدينة على قبرهم لغلبة أهل الجهل، حيث لايجوز بناء المسجد على القبر ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً﴾.

أما عدد المهاجرين ممن تابعك وآمن لك فهو عدد كبير، ولو أضفنا إليهم من آمن قبل الهجرة من الأنصار وغيرهم لزاد العدد، فسيكون عدد أتباعك كبيراً قبل هجرتك. ولعل العدد (سبعة) في قصة أصحاب الكهف يدل عليه. إذ هذا العدد يدل على الكمال والتمام في الكثرة والقوة. إذ جعلت كل من السماوات والأرضين سبعاً لبيان كمال عظمة الخالق، وأشواط الطواف والسعي سبعاً لإظهار كمال الحب والذل لله تعالى، والجمار سبعاً لإظهار تمام التخلص من حظوظ الشيطان القلبية، وخلق الإنسان من سبع لبيان كمال

خلقه، وسجوده على سبع لتمام الذل، والأيمان سبعاً، والمثاني السبع والسبع الطوال والفاتحة سبع آيات، وعذاب قوم عاد عندما تحدوا نبيهم فقالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ عذبوا ﴿بسبع ليال﴾. ومن أجل ذلك سمي الحيوان المفترس سبعاً لشدته وقوته. قال الراغب: «وقيل سمي السَّبُع بذلك لتمام قوته وذلك أن السَّبْع من الأعداد التامة» أ. هـ

وإذا رافق أصحاب الكهف كلب عند باب الغار، فقد هيأ الله تعالى من هو أجّل من الكلب لتأمين الهجرة للنبي ﷺ سواء من الكفار أو من المسلمين، كعبد الله بن أبي بكر وكان كافراً حينذاك، ثم من هو أفضل منه، وهي أسماء بنت أبي بكر، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، ثم الدليل وهو من بني الدّيل كلهم لتأمين جانب النبي ﷺ وأبي بكر، ثم قول النبي ﷺ لأبي بكر: «ماظنك باثنين الله ثالثهما»[1].

ب- ثم ملازمة أتباعك وإن كانوا من ضعفاء الناس فهم أتباع الرسل، وعدم الركون إلى أهل الغنى والشرف من الكفار ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ فهاجر معهم والزمهم فهم أصل دولتك الجديدة. فإن الله سيبارك للدعوة بدعائهم (إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم). وهذا الذي فعله ﷺ إذ جعل المهاجرين هم أصل دولة الإسلام وأساس الجيش للجهاد خارج المدينة. أما الأنصار فكانت بيعتهم للنبي ﷺ للدفاع عنه داخل حدود المدينة.

(١) رواه البخاري.

جـ - ثم إذا انتقلتم إلى البلد الجديد لتقيموا فيه دولة الإسلام لا تشغلكم الشهوات الدنيوية من مال وولد ونساء عن الجهاد والدعوة والعبادة، ولا تركنوا إليها، وبالأخص زراعة البساتين لأنها تجعل صاحبها يحب الدعة والراحة ويكره الجهاد ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا﴾. وقد التزم النبي ﷺ بذلك، إذ لم يرض أن يكون للمهاجرين مزارع وبساتين يركنون إليها وإنما هي للأنصار أعاروها للمهاجرين. فعن ابن مسعود - وهو من المهاجرين الأولين - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا»[1]. إلى أن مكن الله تعالى للدولة الإسلامية بعد الحديبية ففتح على المهاجرين. فردوا العارية للأنصار ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا﴾.

د- ثم إياكم ودعوى الجاهلية من عصبية قبلية، لأنها تمزق الأمة الإسلامية والدولة الجديدة. وقد كادت تعصف بدولة الإسلام لولا لطف الله تعالى. ففي غزوة المريسيع حدث خلاف بين مهاجري وأنصاري. فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة»[2]. وبعد الغزوة مباشرة حدث خلاف بين سيد الأوس وسيد الخزرج، فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا.[3] فذكر الله تعالى قصة إبليس الذي فخر

(١) رواه الترمذي وصححه الحاكم والألباني.
(٢) رواه البخاري (٤٩٠٥).
(٣) رواه البخاري (٤١٤١).

بأصله عن السجود لآدم﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ . فإياكم وهذه الدعوى المنتنة .

هـ - ثم ستحصل لكم أمور عظام من خرقٍ للصف، وقتل للنفوس، ولؤم، والتي ظاهرها مفسدة، ولكن حقيقتها مصلحة عظمى للدعوة ودولة الإسلام فاصبر واستعن بالله وتوكل عليه حتى تجني من ورائها المصالح الكبرى .

فمما حدث من خرقٍ لوحدة الصف الإيماني اختراق المنافقين للمجموعة المؤمنة بعد غزوة بدر، إذ أظهروا الإسلام فتخللوا بين صفوف المؤمنين، ثم سعوا في خرق صفوف المسلمين في الحروب، إذ انسحبوا من الجيش ومن الصفوف بعد الاستعداد التام للقتال، كانسحابهم بثلث الجيش في غزوة أحد، وكذلك فعلوا في الخندق فقالوا: ﴿ إن بيوتنا عورة﴾ فانسحبوا من أرض المعركة، فخرقوا الصف الإسلامي .

وكذا سعوا في خرق الصف في اتهام زوج سيِّد البشر في حادثة الإفك لتمزيق المسلمين، وتشتتهم وتفرقهم على نبيهم . فهذه الخروقات كادت تودي بدولة الإسلام لولا لطف الله تعالى ورعايته لهذه الأمة، ولكن كان فيها مصلحة عظمى وتربية كبرى لدعاة هذه الأمة حتى أصبحوا قادة للعالم بأسره، والإشارة إليها بقصة خرق السفينة .

ثم قد يحدث فيكم قتل وسفك للدماء فلا تجزعوا، ولكن عليكم أن تبحثوا عن المصالح الكبرى المخبوءة خلف ستار هذه المفسدة كما حصل لموسى مع الخضر في قتل الغلام. وقد حصل هذا للمؤمنين في غزوة أحد وبعدها مباشرة في بئر معونة والرجيع، فقتل من المسلمين سبعون ثم سبعون ثم عشرة. فاستمر النبي ﷺ في الدعوة ولم يصبه الإحباط مهتدياً بوصية الله تعالى.

ثم قد تجد اللؤم ممن وجب عليهم بذل الخير لكم، فاعف واصفح وأصلح. والإشارة إليه بقصة إصلاح الجدار في القرية اللئيمة التي لم تستضف موسى والخضر.

وقد حصل ذلك للنبي ﷺ إذ قال ابن سلول سيد أهل المدينة في الجاهلية عن المهاجرين في غزوة المريسيع: ما نحن وهؤلاء إلا كما قال القائل: سمِّن كلبك يأكلك. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فلم يرض باستضافة أهل المدينة للنبي ﷺ والمهاجرين، وعزم على السعي لإخراجهم لؤماً وحسداً وكفراً. وبالرغم من ذلك أحسن إليه النبي ﷺ وعفا عنه. وعندما مات صلى عليه، وبصق في فمه (لعله يوفق في الإجابة على سؤال الملكين) وكفنه بقميصه.

وعندما أراد هو والصحابة أن يعتمروا عام الحديبية منعتهم قريش ولا يحق لها منعهم، وهي لم تمنع أحداً من العمرة إلا النبي ﷺ والصحابة ولكن مع ذلك عفا النبي ﷺ عنهم في فتح مكة وأكرمهم وأصلح فيهم وجعل الأمة تبعاً

لقريش. فقال: «الناس تبع لقريش»[1] وقال ﷺ: «الأئمة من قريش»[2].
و - ثم سيفتح الله تعالى لك المشرق والمغرب وما بينهما كما فتح لذي القرنين. فانشر دين الله تعالى وأقم شريعة مولاك، واسع في مصالح الناس.

وهذا ما حصل للنبي ﷺ إذ جاءته القبائل من جميع أنحاء الجزيرة مبايعة له ﷺ وأرسل الرسائل إلى المشرق والمغرب. فمنهم من أذعن له ودان. ومنهم من مزق الرسالة النبوية فمزق الله ملكه(إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده). وهابه أعظم ملوك الأرض في ذلك الوقت وهو قيصر، وأعلن أنه لو كان عنده النبي ﷺ لتهيأ للقائه ولغسل قدميه الشريفتين. وعندما جهز النبي ﷺ جيشاً لقتاله، هابه قيصر ورجع خائباً خائفاً من لقائه ﷺ في تبوك.

وصالحه ملوك المنطقة الشمالية والغربية كأكيدر دومة الجندل وأرسل المقوقس بالهدايا لإسترضائه، ثم أكمل المسيرة أصحابه الراشدون المهديون رضي الله عنهم ومن بعدهم، فوصل ملك المسلمين إلى الصين مشرق الشمس، وإلى المحيط الأطلسي مغرب الشمس، بل إلى جبال البرانس في فرنسا، وفي الشمال وصلوا إلى روسيا والبلقان.

كانت بداية الدعوة الفرار بالدين إلى الكهف الذي يخفيهم عن الشمس عند شروقها وغروبها حيث تميل يميناً عن باب الكهف فلا تدخله عند الشروق ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين﴾. ولا تصيبهم عند

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الطيالسي وصححه الألباني.

غروبها مع نفاذ أشعتها إلى داخل الكهف، ولكنها تميل عن أجسادهم ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ ثم في نهاية الأمر خضع مشرق الشمس ومغربها لسلطان هذا الدين ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾.

فمن سلك هذا المنهج مخلصاً لله تعالى، حاز قصب السبق في التمتع بالنظر إلى وجه الله تعالى ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾.

فكانت سورة الكهف ملخصة للمراحل التي ستمر بها الدعوة ودولة الإسلام. فلله الحمد أولاً وآخراً. والله أعلم .

٢ - حوادث موسى عليه السلام

ما الحكمة من حدوث هذه الحوادث لموسى مع الخضر ولم تحدث حوادث أخرى بدلاً منها ؟

هناك حكم كثيرة الله أعلم بها ، وربما يكون من هذه الحكم التربية الإلهية لموسى في عزو العلم إلى الله تعالى .

وذلك : « أن موسى عليه السلام ذكّر الناس يوماً بأيام الله وآلائه ونعمائه وبلائه حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب، قال رجل : أي رسول الله . أي الناس أعلم؟

فقال موسى عليه السلام : أنا .

فقال الرجل : هل في الأرض أحد أعلم منك ؟

فقال موسى عليه السلام : لا .

فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه .

فأوحى الله إليه : إني أعلم بالخير عند من هو . وإن في الأرض رجلاً عبداً هو أعلم منك ، آتيته من العلم ما لم أوتك .

فقال موسى عليه السلام: أي رب فأين ؟ فقيل له : بمجمع البحرين ».

فعندما التقى بالخضر عليه السلام أخذ طائر بمنقاره في البحر .

قال الخضر عليه السلام: ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر .

قال موسى للخضر : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ فخضع موسى لله تعالى وأراد أن يتعلم ممن هو أعلم منه، ويكفر عما بدر منه في قوله

«أنه هو أعلم الناس» . فحدثت لموسى حوادث سابقة مشابهة ومقاربة لتلك التي حصلت له مع الخضر ، ومع ذلك لم يعلم ما وراء حوادث الخضر ، ولم يربطها بالحوادث السابقة ، ولم يفسرها بها . وذلك لزيادة التأكيد لموسى عليه السلام : كيف تقول أنا أعلم الخلق ، وقد حدثت لك حوادث سابقة وعلمت ما وراءها من المصالح الكبيرة الناتجة منها ؟ ثم حدثت لك حوادث مقاربة ومشابهة مع الخضر فأنكرتها عليه ، وكان بالإمكان أن تفسرها بما سبق لك !

أما الحادثة الأولى فهي قصة السفينة التي يملكها المساكين وهم على ظهرها فأفسدها الخضر فأنكرتها عليه .

وقد حدثت لك حادثة سابقة في السفينة عندما ألقت بك أمك وهي من بني إسرائيل المستضعفين الذين استضعفهم الملك الطاغية فرعون ، فألقت بك أمك في الصندوق (وهي سفينتك وأنت على ظهرها وأنت من بني المستضعفين) فكان في عدم ربطها للصندوق (سفينتك) مفسدة ظاهرة لك ولها ، ولكنها في حقيقة الأمر مصلحة كبرى لك حيث ألقت بك سفينتك إلى قصر فرعون ، فتربيت في قصره وأصبحت قوياً مرموقاً محبوباً من قبل أهل مصر ، يرعاك الله تعالى ثم الطاغية فرعون ثم أهل مصر كلها .

وكذلك في خرق سفينة المساكين مفسدة ظاهرة لهم ، ولكن حقيقة الأمر فيه مصلحة كبرى لهم لئلا يأخذ سفينتهم الملك الطاغية . بل يشفق عليهم ويطلقها لهم .

أما الحادثة الثانية فهي قتل الغلام ، فكيف تستنكر على الخضر قتله الغلام وقد

حدثت لك حادثة مشابهة عندما قتلت القبطي فكان في ظاهره مفسدة، ولكن كانت هناك مصلحة عظمى مدخرة، وهي لجوؤك إلى الشيخ الصالح في مدين وتزوجك من ابنته ومكثت في ضيافته عشر سنوات، تعلمت فيها أموراً تنفعك للرسالة، ثم مرورك بسيناء ونزول الرسالة عليك . فكيف لم تتوصل إلى أن قتل الغلام وإن كان ظاهره شراً، ولكن هناك مصالح عظمى من ورائه مهد لها الخضر في أول اللقاء بينك وبينه، ولكنك لم تصبر حتى استنكرت عليه . فكيف تدعي أنك أعلم الخلق ولم يخطر على ذهنك ما وراء هذه الحادثة التي شابهت حادثة سابقة لك ؟!

أما الحادثة الثالثة فهي إصلاح جدار اليتيمين، فكيف تستنكر على الخضر إصلاح جدار في قرية اتصف أهلها باللؤم ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما﴾ . وبلغ من شدة لؤمهم أن لم يراعوا يتمهما وصلاح أبيهما، مما اضطرهما إلى الخروج من القرية والسكن في المدينة ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾ . قال البقاعي عن تسميتها بالقرية دون المدينة : «لأنه أدل على اللؤم»[1] . وقال الجمل عن ذكر القرية : «تحقيراً لها لخسة أهلها»، أما عن ذكر المدينة فقال : «تعظيماً لها من حيث اشتمالها على هذين الغلامين وعلى أبيهما»[2] . ومن لؤمهم أن لو سقط الجدار وظهر الكنز لأخذوه واغتصبوه منهما . قال الشهاب : « ذكروا في قصة الجدار أن اليتيمين كانا غير عالمين بالكنز، ولهما وَصِيٌّ يعرفه، فلو سقط الجدار ربما ضاع الكنز»[3] .

وقد حدثت لك حادثة مشابهة عندما وصلت إلى مدين، إذ رأيت رجالاً

(١) نظم الدرر (٤ / ٤٩٤).
(٢) حاشية الجمل على الجلالين(٤ / ٤٤٨).
(٣) حاشية الشهاب (٦ / ٢٢٣).

اتصفوا باللؤم، حيث لم يتقدم أحد منهم لمساعدة المرأتين الضعيفتين ولهما أب شيخ كبير صالح فتركوهما ، بل هذا دأبهم يومياً معهما، لا يسقون لهما ، وإنما يتركونهما إلى أن ينتهوا من السقاء، ثم تتقدم الفتاتان لتسقيا ولو تأخر الوقت عليهما ، فلم يرأفوا بهما ولم يرحموا ضعفهما ولا ضعف أبيهما الشيخ الكبير .

ثم هؤلاء الرجال عندما رأوك غريباً لم يكرموك ولم يضيفوك، لذا لجأت بعد ذلك إلى الشجرة وألقيت بنفسك في ظلها وقلت ﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ ، وقد تقدمت أنت وسقيت لهما بلا أجر مع احتياجك له .

فلِم لم يخطر في ذهنك أن الخضر أقام الجدار لأناس ضعفاء لهم أب صالح ؟ وهذا الذي فعله الخضر ، إذ أقام الجدار ليتيمين ضعيفين مقابل تلك المرأتين الضعيفتين ، ولليتيمين أب صالح متوفى ، وللمرأتين أب صالح حي . وأهل القرية صفتهم اللؤم ، وكذلك الرجال الذين لم يعينوا المرأتين ولم يضيفوك، ولم يطلب الخضر أجراً وأنت لم تطلب أجراً . فتشابهت الحوادث وبالرغم من ذلك لم تتوصل إليها ثم تزعم أنك أعلم الخلق ؟

مع العلم أن هذه الحوادث مع الخضر أتت مرتبة كترتيب الحوادث التي حدثت لك في السابق : الصندوق في البحر وأنت صغير كالسفينة أولاً، ثم في المرحلة الثانية بعدما كبرت قتلت الفرعوني كقتل الغلام في المرحلة الثانية مع الخضر، ثم هروبك وإعانتك الفتاتين في المرحلة الثالثة كإعانة الغلامين في المرحلة الثالثة مع الخضر ولم تستطع الاهتداء لما وراءها ؟!

قال القرطبي : قيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر إنها حجة على موسى وعتب عليه ، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودي : ياموسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم ؟ ! فلما أنكر من الغلام . قيل له : أين إنكارك هذا من وكزك للقبطي وقضائك عليه ؟ ! فلما أنكر إقامة الجدار ، نودي : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر ؟ ! [1]

(**ملاحظة**: لكن لا دليل على أن الشيخ الكبير في مدين هو شعيب النبي عليه السلام) .

وقال في قتل الغلام الذي ظاهره شر ﴿فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا﴾ ﴿فأردنا﴾ بقتلنا له ﴿أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾ . فنسب إرادة القتل لنفسه بينما منحهما غلاماً خيراً منه نسبها إلى الله تعالى . والملحظ فيها أنه قال ﴿أردنا﴾ ولم يقل (أردت) كما قال في خرق السفينة . إذ خرق السفينة كان أول فعل صدر من الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام، ولم يعلم الخضر هل سيفارقه موسى إذا لم يقبل بمثل هذه التصرفات، أم سيستمر معه فقال (أردت) . ولما اعتذر موسى بالنسيان علم حينئذ الخضر أن موسى موافق له فيما صدر منه سابقاً وما سيصدر منه لاحقاً، ولكن قد يغلب حسه الإيماني عندما يرى منكراً ظاهراً قبل أن ينتبه إلى أنه مع الخضر وأنه أعطاه عهداً بالصبر معه . فهو إذاً موافق له في حقيقة الأمر . لذا عندما قتل الغلام قتله مع موافقة موسى السابقة وموافقته اللاحقة التي قال فيها ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾ . فإذا تبين أنه موافق لقتله سابقاً ولاحقاً، فهو إذاً مشارك له في القتل فقال ﴿أردنا﴾ . وإن صدر مني استنكار مرة أخرى فهو ناتج عن نسيان كما صدر مني في المرة الأولى، فهو إذاً موافق له ﴿أردنا﴾ . زد على ذلك أن المتمالئ على القتل كالمباشر

(١) تفسير القرطبي (١١ / ٣٣)، وذكر نحوه صاحب الروض الريان(١ / ٢٣٠).

للقتل لعظم هذا الفعل كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قتل نفراً خمسة أو سبعة برجل واحد قتلوه غيلة وقال : «لو تمالأ عليه أهل صنعاء على لقتلتهم جميعاً»[1] . فقال ﴿أردنا﴾ . وقال في إصلاح الجدار الذي كله خير ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك﴾ نسب الخير كله لله تعالى .

قال ابن جماعة : «هذا حسن أدب من الخضر مع الله تعالى .
أما في الأول فإنه لما كان عيباً نسبه إلى نفسه فقال ﴿فأردت أن أعيبها﴾ .
وأما الثالث : فكان خيراً محضاً ليس فيه ما ينكر لا عقلاً ولا شرعاً نسبه إلى الله وحده فقال ﴿فأراد ربك﴾»[2]
فلسان حال الخضر عليه السلام يقول لموسى عليه السلام : وهكذا يا موسى! عليك أن تنتقي أفضل الكلمات وأحسنها لأنك تتعامل مع الله تعالى .

فكل ما جرى بين موسى والخضر عليهما السلام تربية إلهية لموسى عليه السلام عندما قال : أنا أعلم . ولم يرد العلم إلى الله تعالى .

---

(١) رواه الإمام مالك .
(٢) كشف المعاني (٢٤٩)، وذكر نحوه في فتح الرحمن (٣٤٦)، والروض الريان (١ / ٢٢٩)، والجمل (٤ / ٤٥٠)، والنسيابوري (١٦ / ١٤) .

٣- تعلمني / تعلمن

قال موسى عليه السلام للخضر : ﴿هل أتبعك على أن **تعلمنِ** مما علمت رشداً﴾ . فقال له ﴿تعلمنِ﴾ بحذف الياء ، ولم يقل له (تعلمني) . ما الحكمة من حذفها في هذه القراءة ؟

أصل الكلمة« تعلمني » ، تتكون من ثلاثة مقاطع «تعلم» و«النون» و«الياء» للمتكلم (تعلم ، ن ، ي) أي تعلمني أنا ، فهي تمثل نفسي وحياتي أنا . فحذفت «ياء» المتكلم وبقيت «النون» فقط ، وهي نون الوقاية والعماد . فحذف ما يدل على المتكلم ، فقال ﴿تعلمنِ﴾ **أي لن يصل العلم إلى المتكلم وإن بذل المعلم الجهد لايصاله إليه . فلسان حاله يخاطب المعلم ويقول له : لن يصل العلم إلى نفسي وإن بذلت جهدك لتعليمي !**

وذلك : « أن موسى عليه السلام ذكر الناس يوماً بأيام الله وآلائه ونعمائه وبلائه حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب، قال رجل : أي رسول الله، أي الناس أعلم؟

فقال موسى عليه السلام : أنا .

فقال الرجل : هل في الأرض أحد أعلم منك ؟

فقال موسى عليه السلام : لا .

فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله .

فأوحى الله إليه : إني أعلم بالخير عند من هو . وإن في الأرض رجلاً عبداً هو أعلم منك ، آتيته من العلم ما لم أوتك .

فقال موسى عليه السلام : أي رب فأين ؟

فقيل له : بمجمع البحرين » .

فعندما التقى بالخضر أخذ طائر بمنقاره في البحر .

« قال الخضر : ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر »[1] .

قال موسى للخضر : ﴿ هل أتبعك على أن **تعلمنِ** مما علمت رشداً ﴾ . وهذا صدر من موسى عليه السلام زيادة في التلطف[2] وقمة في التواضع من نبي الله تعالى في طلب العلم . قال البيضاوي : «وقد راعى موسى في ذلك غاية التواضع والأدب فاستجهل نفسه ، واستأذن أن يكون تابعاً له»[3] .

ومن المعلوم بأن موسى في عهده كان أعلم البشر بالله تعالى وبشريعته ، فاستجهال النفس من قبل عالم أمر شاق .

قال الجمل : «اعلم أن المتعلم الذي حصّل العلوم الكثيرة ، ومارس الاستدلال والاعتراض ثم إنه يريد أن يخالط إنساناً أكمل منه ليبلغ درجة الكمال ، فالتعلم في حق هذا القسم شاق شديد ، لأنه إذا رأى شيئاً أو سمع كلاماً فربما يكون ذلك منكراً بحسب الظاهر إلا أنه في الحقيقة صواب وحق»[4]

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) البقاعي (٤ / ٤٩١) .

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب (٦ / ٢٠٦) .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين (٤ / ٤٤١) .

إن لسان حال موسى يقول للخضر : أنت سوف تبذل مجهوداً كاملاً في تعليمي ، أما أنا فلن أحصل على كل المعلومات التي تحاول تعليمي إياها ، فلن تصل إليّ كل المعلومات التي ستبذلها لي وذلك لضعفي ، فأنا لست أعلم الخلق . وهذا قمة التواضع ، ومن كمال عبوديته لله تعالى وإذعانه له ، فكيف لم أعزُ العلم إلى الله تعالى فأقول : الله أعلم !

فربما لن يصل إليَّ كل ما تبذله لي من علم . فقال ﴿تعلمن﴾ ولم يقل (تعلمني) .

٤ - ﴿ألم أقل لك﴾

عندما أنكر موسى عليه السلام على الخضر عليه السلام بشدة في المرة الأولى فقال ﴿لقد جئت شيئاً إمراً﴾ أي عظيماً ! تلطف معه الخضر فقال﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ فلم يقل «ألم أقل لك»، لأنها المرة الأولى فلم يرد إحراجه بأنه قد واجهه من قبل بهذه الكلمة ﴿إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ .

فقوله ﴿ألم أقل إنك﴾ دون التلفظ بـ « لك » يحتمل أنه ذكرها له مواجهةً، ويحتمل أنه ذكرها لآخر يخبره عن موسى عليه السلام أنه لن يستطيع معه صبراً. ويحتمل أنه لم يخاطب بها أحداً ولكن الخضر خاطب نفسه بها، والآن يؤكد أن ما قرره بينه وبين نفسه قد تحقق، فلا يكون لوماً لموسى عليه السلام في المرة الأولى ولا إحراجاً له فقال ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾، ولأنها المرة الأولى فيتسامح بها.

ولكن موسى عليه السلام عندما أنكر على الخضر عليه السلام في الثانية إنكاراً أشد من الأولى وقال ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي وقعت في منكر عظيم !! خاطبه الخضر عليه السلام بلهجة شديدة فيها شيء من الإحراج فقال ﴿ألم أقل لك﴾ أي خاطبتك أنت بنفسك، وقلت لك مشافهة، ولم أخاطب غيرك أنك لن تستطيع الصبر معي. قال الخطيب الإسكافي: « فكأنه قال: ألم يكن خطابي لك دون من سواك»[1] وهذا كما لو أتى إنسان بما نهيته عنه فلمته وعنفته، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد في تعنيفه.[2] وكما ينبه المعلم طلبته أن لا يتكلموا أثناء

(١) درة التنزيل (٢٨٥)، ونحوه النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١٦ / ١١).
(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي (٦ / ٢١٣).

الدرس، فعندما تكلم أحدهم خاطبه المدرس وقال له: ألم أنبه وأحذر من الكلام أثناء الدرس؟ ثم تكلم ثانية فقال له: لقد نبهتك أنت شخصياً بهذا الكلام، فلا عذر لك. لذا قال موسى عليه السلام للخضر وهو محرج ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً﴾.

ومثل هذا ما ورد في سورة البقرة (سورة التوحيد وكمال المحبة لله تعالى وحده) حيث ذكر الله تعالى منه على بني إسرائيل لتحبيب نفسه إليهم، فيحققوا كمال المحبة والعبودية له وحده، فعندما ذكر أمره لهم ﴿ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً، وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ ذكر الله سبحانه عصيانهم بأسلوب فيه رفع للحرج عنهم فقال ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فلم يذكر في هذه السورة أنه قال لهم ﴿فبدل الذين ظلموا **منهم**﴾ لئلا يحرجهم، تلطفاً وإكراماً وتحبباً.

كالملك عندما يخاطب قبيلة معينة ويريد أن يحبب نفسه إليها، ويحذرها من معصيته وفيها فئة قد عصته ومكرت به، فإنه عندما يذكر منه على الرعية والقبائل كلها يقول: لكن بعض العصاة والخارجين علي عصوني ومكروا للإيقاع بي. ولا يقول للقبيلة المخاطبة: هذه المجموعة منكم أنتم، لئلا يحرج القبيلة.

أما في موضع اللوم والمحاسبة والفضيحة وبيان المعاندين والتحذير من سلوك طريق جاحدي النعمة، فإن أسلوب الخطاب يختلف، إذ ينبغي فيه الإحراج.

وهذا الذي ورد في سورة الأعراف (وهي سورة الرسالة والإنذار) لما ذكر الله تعالى المصائب والمشاق التي ستواجه الرسل من قبل أعدائهم الكفار من ناحية، ومن قبل أتباعهم من ناحية أخرى، ذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام والمتاعب التي واجهها من قبل أتباعه - بني إسرائيل - تحذيراً للصحابة من الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل. فكان الخطاب شديد اللهجة في بني إسرائيل متضمناً التضييق عليهم ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾، وقال ﴿انبجست﴾ ولم يقل سبحانه ﴿انفجرت﴾، وذكر الاعتراف بالذنب قبل دخول القرية وهذا زيادة في الإهانة ﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً﴾، وذكر مغفرة بعض الخطايا فقال ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾، وهو جمع قلة. وذكر تحريفهم واستهزاءهم فقال: ﴿فبدل الذين ظلموا **منهم**﴾، أي بدل القولَ الذين ظلموا منكم أنتم لا من غيركم، زيادة في الإحراج والفضيحة واللوم.

وهنا في سورة الكهف قال الخضر - في المرة الأولى - ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ ولم يقل (ألم أقل لك) لئلا يحرجه، فاعتذر موسى بالنسيان وقال ﴿لاتؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾.

وفي الثانية أنكر موسى عليه السلام بشدة على الخضر عليه السلام فقال: ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ فخاطبه الخضر بخطاب شديد اللهجة - زيادة في العتاب[1] - ﴿ألم أقل **لك**﴾ أنت شخصياً ﴿إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ ولكنك أبيت إلا الاستمرار معي، والآن تنكر علي بشدة؟! لأن إنكار موسى كان أكثر وموجب العتاب أقوى[2]، لذا علم موسى عليه السلام خطأه فقال للخضر وهو في حالة حرج ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً﴾.

(١) البيضاوي (٦ / ٢١٣)، ونحوه للجمل على الجلالين (٤ / ٤٤٤).
(٢) النيسابوري (١٦ / ١١)، ونحوه لابن جماعة في كشف المعاني (٢٤٨)، والريان في روضه (١ / ٢٢٨).

٥ - تستطيع / تسطع

قال موسى عليه السلام للخضر عليه السلام : ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً؟ قال : إنك لن **تستطيع** معي صبراً ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ . أي إنك ستجد أمامك أحداثاً ستتعرف على حكَمها ومغزاها إذا صبرت عليها ، ولكنك لن تصبر عليها ، لذا فلن تتعرف ولن تتوصل إلى حكَمها ، إذ ليست عندك القدرة الكاملة على الصبر لتعلم هذا العلم . فالصبر لتعلمها يتحقق بإحدى طريقتين :

- إما أن تصبر إلى أن تنتهي هذه الأحداث فأفسرها لك .
- و إما أن تصبر نفسك على التوصل إلى معرفة حكَمها بنفسك .

وأنت يا موسى لا تمتلك القدرة الكاملة للصبر على تعلمها بإحدى الطريقتين . فقال موسى عليه السلام : ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ أي سوف أصبر لأتعلم من هذا العلم ، وستجد عندي القدرة على تعلم هذا العلم بصبري معك بإذن الله تعالى .

ولكن موسى عليه السلام لم يصبر في الموقف الأول وذلك أنهما لمّا ﴿ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها؟!﴾ فذكّره الخضر ﴿ألم أقل إنك لن **تستطيع** معي صبراً﴾ ، أي ألم أقل إنك لا تمتلك القدرة الكاملة (لن تستطيع) على تعلم هذا العلم بالصبر ، ولكن ما زال في المجال متسع لتصبر على تعلمه . قال موسى عليه السلام حينئذٍ ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ .

ثم حدث موقف آخر فلم يصبر فيه موسى عليه السلام عندما ﴿لقيا غلاماً فقتله، قال: أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟!﴾، فقال الخضر: ﴿ألم أقل لك إنك لن **تستطيع** معي صبراً﴾ فليست عندك القدرة الكاملة على تعلم هذا العلم بالصبر، وأكده بقوله (لك) لينتبه، ولكن ما زالت الفرصة أمامك لتصبر على معرفة الحِكَم من ورائها. فقال موسى عليه السلام: ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً﴾.

ثم حدث موقف ثالث عندما ﴿أتيا أهل قرية، استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ فأقامه الخضر. حينئذ لم يصبر موسى عليه السلام فقال: ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ لأن القوم لئام لم يضيفونا. فقال الخضر: ﴿هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما لم **تستطع** عليه صبراً﴾ أي سأنبئك بحقيقة الأحداث وحِكَمها، والتي لم تكن عندك القدرة الكاملة على معرفتها وتعلمها بالصبر.

فقوله تعالى في الآية﴿ **ما لم تستطع** ﴾ بإثبات التاء فيها دلائل:

- نفى القدرة الكاملة على الصبر لتعلُّمها، ولكن لم ينف القدرة الناقصة على معرفتها بالصبر. قال البقاعي: «ما نفى إلا القدرة البليغة على الصبر، إشارة إلى صعوبة ما حمل موسى من ذلك، لا مطلق القدرة على الصبر»[1]
- إذ من الممكن في هذه اللحظة أن يطلب موسى عليه السلام من الخضر الانتظار لكي يحاول معرفة الحكمة منها بنفسه، فيصبر نفسه هذه اللحظات على التفكير في مغزاها والتوصل إليها ثم يقول: قد علمت الآن لماذا تصرفت تلك التصرفات

(١) نظم الدرر (٤ / ٤٩٦).

التي ظاهرها مفسدة وحقيقتها مصلحة . لذا لم ينف الخضر القدرة الناقصة لموسى عليه السلام على أن يصبر نفسه لمعرفتها، ولكن نفى القدرة الكاملة لها . ولكن لهول هذه الأحداث وعظمها وتتابعها من خرق سفينة المساكين الكرماء، وقتل النفس البريئة، وإكرام اللئام، لم يطق موسى عليه السلام الصبر لحظة على هذه المنكرات العظيمة في الظاهر إلى أن يتوصل لمغزاها .

حينئذ بين له الخضر حقائق هذه الأحداث وما وراءها وتأويلها وحكَمها . فاتضح بعد الانتهاء من تفسير الخضر لها، أن موسى عليه السلام لم تتوفر لدَيه القدرة الكاملة ولا القدرة الناقصة على تصبير نفسه للتوصل إلى معرفتها، فانتفت عنه كل أنواع القدرة للصبر على تعلمها . لذا نفاها عنه الخضر في نهاية القصة فقال : ﴿ذلك تأويل ما **لم تسطع** عليه صبرا﴾ . قال : ﴿**تسطع**﴾ بحذف التاء ، أي القدرة الناقصة، فنفى عنه هذه القدرة الباقية الناقصة من الصبر على تحمل هذه الأهوال للتوصل إلى الحكمة منها فقال ﴿ما **لم تسطع**﴾ ولم يقل« ما لم تستطع» . قال البقاعي : «حذفت تاء الإستطاعة لصيرورة ذلك - بعد كشف الغطاء - في حيز ما يجمل . فكان منكره غير صابر أصلاً لو كان عنده مكشوفاً من أول الأمر»[1] .

فعندما كان في المجال متسع ليصبر موسى عليه السلام نفسه لمعرفتها قبل تفسير الخضر لها قال : ﴿سأنبئك بتأويل ما **لم تستطع**﴾ بإثبات التاء فلم ينف القدرة الناقصة وإنما نفى القدرة الكاملة . وبعدما فسر له الحوادث وتبين أن موسى عليه السلام لا يملك أي نوع من الصبر للتوصل إلى مغزاها قال : ﴿ذلك تأويل ما **لم تسطع** عليه صبرا﴾ بحذف التاء . فنفى القدرة الناقصة من الصبر لتعلمها ومعرفتها .

(١) نظم الدرر (٤ / ٤٩٨).

٦- اسطاع / استطاع

الزيادة في الأحرف تعني زيادة في المعنى ، والنقصان فيها يدل على نقصان في المعنى ، كما قيل : الزيادة في المبنى تقتضي الزيادة في المعنى .

كلمة «استطاع» تدل على القدرة الكاملة ، ونفيها (لم يستطع) يدل على عدم وجود كمال القدرة ، ولكنها قد توجد بصورة ناقصة ، وقد لا توجد .

مثاله : لو كانت يد الأب تقصر عن توفير المتطلبات الأساسية لأولاده، كأن تكون النفقة توفي إطعامهم إلى منتصف العام فقط، ويبقى النصف الثاني بلا قوت ولا طعام، فإنه يقال فيه : (لا يستطيع الانفاق عليهم) . ولا يعني ذلك أنه لا يملك شيئاً بتاتاً وإن كانت الكلمة (لا يستطيع) تحتمل الحالتين .

أما كلمة « اسطاع » فتدل على وجود قدرة ناقصة غير كاملة ، ونفيها (لم يسطع) يدل على ذهابها كلية ، إذ نفي القدرة القليلة المتبقية يقتضي عدم وجود أي صورة من صورها . فهو عاجز تمام العجز عن تحقيقه . فلا يملك أدنى قدرة .

مثاله : لو كانت يد الأب قاصرة عن توفير أي مقدار من الطعام والقوت للأولاد، فإنه يقال فيه على وجه الدقة (لم يسطع الإنفاق عليهم) بحذف التاء .

قال الله تعالى عن يأجوج ومأجوج ومحاولاتهم الخروج من السد المنيع :

﴿**فما اسطاعوا** أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾ . من المعلوم أن الخروج من السد يحصل إما بالعلو عليه وتسلقه ، أو بفتح نقب - فتحة كبيرة - فيه يستطيع المرء الخروج منه .

أما العلو عليه وتسلقه فقد نفى الله تعالى القدرة عليه نفياً قاطعاً ، إذ نفى كل أنواع القدرة وكل صورها بنفيه لأدنى أنواع القدرة، فقال سبحانه : ﴿**فما اسطاعوا** أن يظهروه﴾ ولم يقل سبحانه : (فما استطاعوا أن يظهروه) فلن يأتي اليوم الذي يعلون فيه على السد .

وأما فتح النقب وحفره ، فلم ينف المولى عز وجل جميع أنواع القدرة وصورها، وإنما نفى القدرة الكاملة فقال : ﴿**وما استطاعوا** له نقباً﴾. قال البقاعي : «وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليها أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل . . . ويؤيده أنهم إنما يخرجون في آخر الزمان بنقبه لا بظهوره، ولا ينافي نفي الإستطاعة لنقبه»[1] .

فلم ينف المولى تبارك وتعالى القدرة الناقصة وذلك لوجود القدرة على حفر النقب ، ولكنهاتتحقق بعد مئات السنين، وبعد محاولات متكررة، فهي قدرة ناقصة . وهذا الذي ذكره النبي ﷺ، فعن زينب بنت جحش رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ - قالت : «استيقظ النبي ﷺ من نومه ، وهو محمر وجهه ، وهو يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم

(١) نظم الدرر (٤ / ٥٠٥).

يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق - وعقد سفيان بأصابعه تسعين أو مائة . قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم . إذا كثر الخبث»[٢] .

فبين النبي ﷺ أنه بعد عشرات بل مئات السنين من بناء السد - ووافق ذلك العهد المدني - استطاع يأجوج ومأجوج أن يفتحوا ثقباً صغيراً ، فهذه قدرة ناقصة .

وفي الأثر : «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيرجعون إليه كأشد ما كان . حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس ، حفروا حتى كادوا أن يروا شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غداً إن شاء الله، ويستثني - أي بقوله إن شاء الله - فيعودون إليه وهو كهيئته يوم تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس»[٢] . ومصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾[٣] .

قال البقاعي : ﴿فتحت﴾ : أي بفتح السد[٤] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أحمد .

(٣) الأنبياء (٩٦).

(٤) نظم الدرر (٥ / ١١٢).

٧ - عدد أصحاب الكهف

قال الله تعالى ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: «أنا من القليل، كانوا سبعة»[1]. أي وثامنهم كلبهم. ربما رجح ابن عباس هذا العدد لثلاثة أدلة:

١ - لأن الله تعالى ذكر الأعداد الأخرى فوصفها بأنها أقوال بلا علم رجماً بالغيب ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب﴾. وعندما ذكر القول الثالث لم يصفه بأنه رجم بالغيب ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾. قال ابن كثير: «ثم حكى الله تعالى القول الثالث وسكت عليه أو قرره. فدل على صحته وأنه الواقع في نفس الأمر»[2].
وفي تفسير الجلالين: «وصف الأولين بالرجم دون الثالث دليل على أنه مرضي وصحيح»[3] أ. هـ.

٢ - ثم لم يذكر الله تعالى بينهما (واو) التأكيد في الأقوال الموصوفة بأنها رجم بالغيب ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ لم يقل سبحانه (ورابعهم كلبهم). وقال تعالى ﴿ويقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾ ولم يقل (وسادسهم كلبهم). وعندما ذكر القول الثالث ﴿ويقولون سبعة﴾ قال سبحانه مؤكداً

---

(١) رواه ابن جرير.
(٢) التفسير (٥ / ١٤٤).
(٣) (٤ / ٤٠٨)

﴿وثامنهم كلبهم﴾.

قال البيضاوي: «فائدة دخول الواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على اتصافه بها أمر ثابت»[1]. قال البقاعي: «دلت هذه الواو على أن أهل هذا القول قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس، لم يرجموا بالظن»[2].

وقد رأى الإمام العلامة ابن القيم أن الأحسن أن يقال بأن القول (سبعة) من قول الناس، وأكده سبحانه من عنده بقول ﴿وثامنهم كلبهم﴾ فقال: « قد حكى سبحانه أنهم قالوا (سبعة) ثم أخبر تعالى أن ﴿ثامنهم كلبهم﴾ فحينئذ يكون تقريراً لما قالوه، وإخباراً بكون الكلب ثامنهم»[3].

٣- جنوح ابن عباس رضي الله عنهما إلى العدد (سبعة) كما في ترجيحه ليلة القدر. إذ روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنها «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: أي ليلة هي ؟ قال ابن عباس: سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر . : خلق الله سبع سماوات، وسبع أرضين. وسبعة أيام، وإن الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع لأشياء ذكرها»[4].

أما قوله: ويأكل من سبع فقد فسرها في رواية قتادة ﴿فأنبتنا فيها حباً، وعنباً، وقضباً، وزيتوناً، ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهة﴾وأما خلق الإنسان من سبع

(١) الحاشية (٦ / ١٥٥).

(٢) نظم الدرر (٤ / ٤٦٠).

(٣) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٦)، ونحوه الغرناطي في ملاك التأويل (٢ / ٦٤١ - ٦٤٢)، والإسكافي في درة التزيل (٢٨٠).

(٤) المعجم الكبير (١٠ / ٣٢٢).

ففسرها ابن عباس من قوله تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾[1] .

(١) رواه ابن سعد وعبد بن حميد (الدر المنثور ٦ / ٥٧٥).

٨ - المهتدِ وليس المهتدي

المهتدي هو صاحب الهداية الكاملة التي لا يشوبها شيء من خطأ ونسيان وذنب صغير مغفور فضلاً عن الذنوب الكبيرة (الكبائر). ولكن الطبيعة البشرية لابد وأن يعتريها شيء من ذلك، إذ روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[١].

فما من عبد إلا وهو معرض للخطأ كما حصل لموسى الكليم عليه السلام عندما ضرب الفرعوني فقتله خطأً. وكذلك النسيان ملازم للطبيعة البشرية كما قال موسى للخضر ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾. بل المؤمنون يقعون في الذنوب الصغائر ولكنهم يسارعون في التوبة إلى الله تعالى. منها ما رواه أبو أيوب أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم»[٢].

فالهداية التي يعتريها ما سبق من النسيان والخطأ والصغائر والغفلة لا يقال لمن اتصف بها أنه **مهتدي** هداية كاملة لا يعتريها شيء مما سبق، وإنما الأبلغ أن يقال له «مهتد» بحذف الياء للنقص المذكور في الهداية، إذ النقص في المعنى يناسبه النقص في المبنى (اللفظ). قال الله تعالى عن أصحاب الكهف ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد للهُ فهو **المهتد** ومن يضلل

---

(١) رواه أحمد وحسنه الألباني.

(٢) رواه مسلم.

فلن تجد له ولياً مرشداً﴾، فأصحاب الكهف كبقية المؤمنين يعتريهم النسيان والخطأ والوقوع في الصغائر، فناسبهم لفظ «المهتد».

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية بالرغم من إيمانهم العميق المتصف بالقوة إلا أن العبد المؤمن لا يأمن من الاستجابة للفتن كفتنة القهر أو المال والولد، أو حب الشهرة أو الفخر بالأصل أو فتنة العلم والمنصب. فينبغي أن يلازمه هذا الشعور، فلا يخرج نفسه من دائرة احتمال الوقوع فيها لئلا يشعر بالعجب والغرور. فهو معرض للسقوط في أية لحظة فـ «إن القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما حيث يشاء»[1]. وهذا يناسبه لفظ «مهتد».

إذ كلما شعر الإنسان أن عمله يشوبه النقص، كان أبعد عن الغرور والعجب، فيخالجه الشعور تجاه هذه الفتن أنه معرض للوقوع فيها لحظة الغفلة أو النسيان أو الخطأ أو غلبة الشهوة كحال بني آدم فهو «مهتد» لا «مهتدي».

ومن ناحية أخرى، فإن العبد إذا ما وقع في الفتن فإنه قد يظن أنه خرج من طريق الهداية، ولا يستطيع الرجوع إليه. لكن الله تعالى بين له أنه ما زال في طريق الهداية إذا ما رجع وتاب، واستغفر وندم، فيستحق اسم الهداية فقال سبحانه ﴿مهتد﴾، فلم يوصف بالهداية التي لا يعتريها النقص أبداً (المهتدي) ولم يسلب منه اسم الهداية.

أما ورود كلمة «المهتدي» في سورة الأعراف دون «المهتد» لأن الله تعالى تكلم

---

(١) رواه مسلم.

قبلها عن إتمام كلمته الحسنى على بني إسرائيل ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل﴾، وإنجائهم وإهلاك الفراعنة من أجلهم، وكلام الله تعالى لموسى عليه السلام، وإنزال التوراة وقد خطها الله تعالى بيده. وتكررت في حقهم كلمة الهداية إذ بين الله تعالى أن هذه التوراة ﴿هدىً ورحمة﴾ ثم قول موسى عليه السلام لله تعالى ﴿إنا هدنا إليك﴾ ثم ذكر الله تعالى أن من قوم موسى أمة ﴿يهدون بالحق﴾.

فأصابهم الغرور بأنهم الأمة المختارة على العالمين إذ قالوا ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً﴾ وقالوا ﴿كونوا هوداً﴾ تهتدوا، وقالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾. فوقعوا في ضلالات متلاحقة، منها استياؤهم من مجيء موسى عليه السلام فقالوا ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾، ثم طلبهم لعبادة آلهة أخرى ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾، ثم عبادتهم للعجل ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾، ثم اشتراط خيارهم والمقدمين منهم وهم السبعون رجلاً الذين أتوا لطلب التوبة لقومهم من عبادة العجل، فقد اشترطوا رؤية الله فـ ﴿أخذتهم الرجفة﴾، ثم إعراضهم عن الإيمان بالنبي ﷺ ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾، ثم قولهم «حنطة» بدلاً من ﴿حطة﴾، ودخولهم يزحفون على إستاههم لما قيل لهم ﴿ادخلوا الباب سجداً﴾ استهزاءاً، ثم تحايلهم للصيد يوم السبت، ثم قولهم ﴿سيغفر لنا﴾ مع إصرارهم على الكبائر.

ثم ذكر الله تعالى قصة العالم الذي أكرمه الله تعالى بالعلم الشرعي ولكنه

أخلد إلى الأرض، قيل إنه بلعام بن باعوراء أحد علماء بني إسرائيل﴿واتل عليهم نبأ الذي أتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾. إذ جمع علماً كثيراً فغره علمه واتكل عليه، فبين الله تعالى أن العلم ليس هو الهداية، وليس الجامع للعلم هو المهتدي! فمن اتكل على علمه وكل إليه. وإنما حقيقة الهداية من هداه الله تعالى هداية حقيقية كاملة لا نقص فيها ولا شائبة نسيان وخطأ وصغيرة وغيرها، فهو المستحق لوصف **المهتدي**، والله تعالى قادر على خلق عبد من الإنس أو الجن بهذا الوصف، ولكنه سبحانه لم يشأ.

فمن طلب الهداية التامة الكاملة فعليه أن يلجأ إلى الله تعالى فذلك الطريق الأوحد للهداية الحقيقية التامة التي لا شائبة فيها، لا من اتكل على نفسه وغره علمه وأعجب بمكانته. فلو كانت الهداية هي العلم لكان إبليس هو أهدى الخلق في وقته.

فمناسبة ذكر «المهتدي» في هذه السورة ليعلم المغتر والعاصي قدره، وأنه بعيد عن الله تعالى. وتوضيحه كما يلي: لو تمت المقارنة بين العاصي صاحب الكبيرة المغتر وبين ذاك الذي وقع في الكبائر ثم تاب مباشرة لظن العاصي أن الفرق ليس كبيراً، إذ كلاهما وقع في الكبيرة.

وكذا صاحب الصغيرة المصر عليها مع ذاك الذي لم يتب منها ولم يصر عليها بل نسيها، لرأى أن الفرق ليس كبيراً.

ولكن لو كانت المقارنة بين العاصي صاحب الكبيرة المصر عليها والمهتدي هداية كاملة لعلم أن الفرق كبير بينهما. فيعلم حينئذ أنه بعيد عن الله تعالى فضلاً عن الفخر باختيار الله تعالى له. وهذا هو الملاحظ في سورة الأعراف.

وزيادة في الإيضاح: لو نظر إلى مراحل الوقوع في الزنا، أولها غض البصر عن المرأة وعدم مكالمتها، ثم النظر إليها لحاجة ثم النظر إليها بلا حاجة، ثم مكالمتها لحاجة ثم مكالمتها بلا حاجة، ثم مجالستها ثم مس يدها، ثم التقبيل ثم المباشرة بلا جماع، ثم الوقوع في الزنا ثم تكراره ثم الإكثار منه. فلو تمت المقارنة بين كل مرحلة والتي تسبقها مباشرة لقيل إن الفرق قليل سهل، ولما علم صاحب المرحلة الأخيرة عظم الجرم الواقع فيه، ولكن لو تمت المقارنة بينه (وهو المكثر من الزنا) وبين المرحلة الأولى وهي غض البصر عن المرأة لعلم عظم الجرم، والبون الشاسع بينهما.

وفي المقابل طالب العلم الشرعي: فالمرحلة الأولى تبدأ بالسؤال ثم الإكثار من السؤال، ثم حضور مجلس علمي ثم مجلسين ثم عدة مجالس علمية، ثم يصير طالباً شرعياً ثم متميزاً، ثم بداية المشيخة ثم المرحلة الثانية من المشيخة، ثم المشيخة، ثم المشيخة المتميزة، ثم عالماً ولكن في المراحل الأولى ثم المتوسطة ثم عالماً، ثم مجتهداً ثم مجتهداً متميزاً. فلو تمت المقارنة بين كل مرحلة والتي قبلها لكان الفرق قليلاً، ولا يشعر صاحبه بالبون الشاسع، أما لو تمت المقارنة بين المرحلة الأولى للطلب والمرحلة الأخيرة وهو العالم المجتهد المتميز لعلم أنه لا يعلم شيئاً مقابل العالم المجتهد المتميز.

وهكذا لو تمت المقارنة بين مراحل الهداية وبين الوقوع في المعصية، فإن

المهتدي هداية كاملة هو الذي لا ينسى ولا يخطئ، ولا يقع في الصغيرة متعمداً ولا غير متعمد، ولا في الكبيرة. ثم الوقوع في الخطأ غير المتعمد، ثم مع النسيان، ثم الوقوع في الصغيرة بلا إصرار، ثم الوقوع في الكبيرة بلا إصرار مع توبة مباشرة (مهتد)، ثم الوقوع في الصغيرة مع عدم التوبة، ثم مع الإصرار، ثم في الكبيرة مع عدم الإصرار، ثم الإصرار، ثم تعدد الكبائر، ثم الإكثار من الكبائر. فبمقارنة كل مرحلة مع سابقتها يبدو الفرق قليلاً، بل قد يشعر بعضهم أنه لا فرق بينه وبين سابقه. ولكن عندما تقارن آخر مرحلة (صاحب الكبائر الكثيرة) **بالمهتدي** هداية كاملة لا شائبة فيها من نسيان ولا غيره، يعلم العاصي حينئذ حقيقة نفسه وما هو عليه، وأنه كان مغروراً زائغاً يستحق العقوبة.

فإياك أن تغتر بهدايتك! ولذا قيل: إن طالب العلم في المرحلة الأولى يظن أنه العالم الأوحد لا نظير له، فإذا ارتقى في طلب العلم رأى نفسه كباقي الطلبة، وإذا ارتقى في سلم العلم علم أنه جاهل لما يرى من سعة العلم وتفريعاته ودقة فهم العلماء واستنباطهم، وأن هناك علوماً كثيرة ومسائل عدة لا يعرف الحق فيها وأخرى لا يعرفها، فرأى العلم على حقيقته.

فناسب في سورة الانذار والرسالة (الأعراف) أن يقال «المهتدي»، فهي تخاطب العاصي الغارق في العصيان وهو مغتر. بينما سورة الكهف تخاطب من هداه الله تعالى وعصمه من الفتن ولم يكن مغروراً، بل هاجر فراراً إلى الله تعالى. لذا فالوصول إلى الغاية والهداية المذكورة (مهتد)وهي الهداية مع النسيان والخطأ وغيرهما أمر ممكن، ولكن ليعلم أنه وإن اهتدى، فهو معرض للزلل في كل لحظة. فهو لا يرى أن لنفسه حقاً على الله لهدايته. لذا كثر

نكران حقوق النفس على الله تعالى بحذف حروف المد في كثير من الآيات ﴿إنما أنأ بشر مثلكم﴾ ﴿إن ترنِ أنأ أقل منك﴾ ﴿أن يؤتينِ﴾ ﴿تعلمنِ﴾ ﴿لكنأ هو﴾.

ولو قال قائل: إذا خلت البشرية من **المهتدي** هداية كاملة بلا نسيان ولا خطأ، ألا يصح أن يطلق هذا اللفظ «**المهتدي**» على الذي ينسى ويخطيء ولا يتعمد المخالفة؟ لأنه من أفضل البشر مقارنة بمن يتعمد المعصية والمخالفة، فالمسألة نسبية؟

فإنه يقال: قد يطلق هذا اللفظ أحياناً كما في قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب لسورة الإسراء والكهف، ولكن الأصل ما سبق بيانه.

فكل من القراءتين أعطت معنى أفاد القارئ. فقراءة نافع ومن وافقه دلت على جواز إطلاق لفظ **المهتدي** على أهل الدرجات العلى كالمرسلين وسائر الأنبياء والصديقين والمحسنين وغيرهم. وأنها قد تطلق على الكمال البشري. فدلت هذه القراءة على أنهم قد بلغوا الكمال ولكن البشري.

وقراءة حفص ومن وافقه دلت على أن هذا الكمال البشري في الهداية لا يخلو من النسيان أو الخطأ أو وقوع بعض المؤمنين في الصغائر، فهم من البشر، والبشر يعتريهم ما ذكر، فحقيقة أمره «مهتد».

فكلا اللفظين في هذا الموضع منح معنى بليغاً. فالأولى دلت على أنهم بلغوا الكمال البشري، والثانية دلت على أن الكمال البشري لابد وأن يعتريه شيء من النسيان والخطأ.

٩ - عضدا وليس أعضاداً

● قال الله تعالى : ﴿وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾ بصيغة المفرد ولم يقل سبحانه «أعضاداً» بصيغة الجمع كما جمع المضلين!! .

أما في قوله تعالى ﴿وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾ فـ «العضد» هو ما فوق الذراع بين المرفق والكتف، ويكنى به عن الإعانة والمؤازرة، كما قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ .

وردت هذه الآية في سورة الكهف في شأن الافتتان بشرف الأصل، كما فتن إبليس بشرف أصله أنه من الجن، زاعماً أن الجن أفضل من الإنس لأنهم خلقوا من نار. فقد يفتتن بعض الناس بشرف أصله الذي يصبح مدعاة للإعراض عن دين الله تعالى، فيفخر بنسبه وآبائه وأجداده وأخواله، ويترفع بهم عن متابعة أوامر الله تعالى وحضور مجالس الذكر ومساجد الله تعالى. فبين الله تعالى أن هؤلاء بمجموعهم دون الصلاحية، ولا يرتقون إلى مستوى المؤازر الواحد، بالرغم من شرف أصلهم المزعوم الذي اعتضدوا به وائتزروا وبلغوا القمة فيه، إلا أنهم أحقر من أن يبلغوا منزلة المعين الواحد فيستعان به، وأذل من أن يرفعهم الله تعالى لنصرة دينه .

١٠ - فظنوا أنهم مواقعوها / علموا

● وقال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ ولم يقل سبحانه «فتيقنوا أنهم مواقعوها» أو «علموا أنهم مواقعوها»، وإنما ﴿فظنوا أنهم مواقعوها﴾.

لو رأيت أحوال المجرمين يوم القيامة لرأيتها غاية في الذل، إذ يتشبثون بأبعد الآمال للنجاة من العذاب. فبالرغم من سوقهم إلى نار جهنم وعرضهم عليها بأمر الله تعالى ﴿خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾. ثم الإستجابة السريعة من الملائكة العظام للأوامر الإلهية، فدفعوهم دفعاً إلى النار ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً﴾ أي يدفعون إليها ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾، والأمر الإلهي بأن يكبكبوا فيها بلا تراجع لقوله سبحانه ﴿ما يبدل القول لدي﴾، إلا أنهم عندما يرونها ويعاينونها يتمسكون بقشة من الأمل لعلهم ينجون منها لما يرون فيها من الأهوال: من عمقها وهو مسيرة سبعين سنة. وشدة حرها إذ تفوق سبعين ضعفاً لنيران الدنيا الملتهبة. وشدة تسعيرها وإيقادها ولظاها الذي ينزع جلدة الوجه من الرأس ﴿نزاعة للشوى﴾. قال أبو هريرة رضي الله عنه: «أوقد على النار ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم»[1]. وعظم لهيبها وشررها ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾، وصوتها المخيف حال تغيظها وفورانها وشهيقها تكاد تتقطع. لا نفس فيها، ويحطم بعضها بعضاً، وشدة صياح أهلها فيها ولا

(١) صححه الدارقطني وابن رجب.

مجيب.

وهذا الأمل أخرجهم من اليقين في دخول النار إلى الظن في دخولها. لذا يحاول بكل وسيلة تخطر في ذهنه لعله ينجو بها، إذ يخطر في ذهنه أنه من الممكن أن ينجو بالكذب، ويدعي أنه لم يشرك بالله تعالى في دنياه ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين، انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾.

فعندما لم تنفعه هذه الوسيلة، خطرت في ذهنه وسيلة أخرى ربما ينجو بها من النار وهي عدم قبول شهادة الملائكة عليه بكفره. قال النبي ﷺ في مخاطبة الكافر لربه تعالى يوم القيامه (يارب! ألم تجرني من الظلم؟ يقول: بلى. فيقول (الكافر): فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني. فيقول (الله تعالى): كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي. فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام. فيقول (الكافر): بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل)[1]. وهذا عندما يساق إليها لإلقائه فيها ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون، حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾.

فعندما لم تنفع هذه الوسيلة لنجاته. خطر في ذهنه أن يسأل العودة إلى الدنيا

---

(١) رواه مسلم.

فسألوا الرجعة إلى الدنيا وأن يردوا إليها، فيؤمنوا بالله وآياته ولا يكذبوا رسله ليتخلصوا مما شاهدوه من النار ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ فتكون عنده بارقة أمل بالنجاة منها، حينئذ يتحول يقينه في دخول جهنم إلى احتمال دخولها.

فالأمر متوقف على نجاح الوسائل التي سيستخدمها للنجاة منها. كالمتعلق بمن يحب من الأحياء، فجأة يراه ميتاً أمامه فيصدم وتعتريه الوساوس والأوهام لعله لم يمت، لعل.. لعل، فيعيش حالة من التشكك في موته لا بالتيقن منه.
قال الله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾، ولم يقل سبحانه «فتيقنوا أنهم مواقعوها» أو «علموا أنهم مواقعوها» وإنما ﴿فظنوا أنهم مواقعوها﴾!!.

فقارن الآن بين التكبر والترفع في الدنيا بشرف الأصل والفخر بالآباء والأجداد والتهائه به عن طاعة الله تعالى واحتقاره لعباد الله والدعاة إلى دينه من ناحية، وبين الذل الذي يحيط به يوم القيامة وحال الذليل من التلطف والتعلق بكل حركة وكل كلمة وخشوع البصر وانكسار الوجه بحثاً عن أدنى وسيلة أو سبب لينجو مما هو فيه!
وممن حملها على ظاهرها في الظن الذي ليس بيقين مجموعة من المفسرين:
١ - إذ قال الشهاب: «قيل على ظاهره لعدم يأسهم من رحمة الله قبل دخولها. وقيل: باعتبار أنهم ظنوا أنهم تخطفهم في الحال»[1].

(١) حاشية الشهاب (٦ / ١٩٤).

٢ - وقال النيسابوري: «إن الكفار يرون النار من مكان بعيد، فيغلب على ظنونهم أنهم مخالطوها، واقعون فيها في تلك الساعة من غير تأخير ولا مهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها»[١].

٣ - وقال البقاعي: «جرياً على عادتهم في الجهل كما قالوا ﴿اتخذ الله ولداً﴾ بغير علم و﴿ما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة﴾، و﴿إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ مع قيام الأدلة التي لا ريب فيها»[٢].

(١) تفسير النيسابوري (١٥ / ١٧٧).
(٢) نظم الدرر (٤ / ٤٨١).

١١- أن يؤتينِ خيراً من جنتك

قال المولى عز وجل في قصة صاحب الجنتين عندما خاطبه المؤمن ﴿فعسى ربي أن **يؤتين** خيراً من جنتك﴾ ، فقال في الآية ﴿أن يؤتين﴾ بحذف الياء، وليست (أن يؤتيني) . فما الحكمة من حذف الياء في هذه القراءة ؟

الإيتاء هو العطاء ، و« أن يؤتيني » أي : أن يعطيني . والكلمة مكونة من ثلاثة مقاطع : فعل «يؤتي» و حرفي النون والياء (يؤتي ، ن ، ي).
أما الفعل «يؤتي» فهو بمعنى : يعطي
وحرف « النون » : هو نون الوقاية ، ونون العماد .
أما حرف « الياء » : فهو ياء المتكلم ، أي العطاء يصل إليَّ أنا .
فقوله « يؤتيني » أي العطاء يصل إلى نفسي ، يصل إليّ أنا . فإذا حذفت الياء، وقلت ﴿يؤتين﴾ دل ذلك على ما يلي :
١ - **إني لا أجـزم أن العطاء يصل إلى نفـسي ويصل إليّ.** ومن عطاء الله لي نجاتي وإدخالي الجنة وغفران ذنوبي وعفوه عني فقوله : ﴿فعسى ربي أن **يؤتين** خيراً من جنتك﴾ أي أنا لا أستطيع أن أجزم على الله تعالى أنه ينجيني ، ولاَ أستطيع أن أجزم وأؤكد أنه يدخلني الجنة . فربما لي ذنوب كثيرة لم أنتبه لها أو نسيتها ولم أتب منها ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ . فقد تفوق ذنوبي الكثيرة حسناتي فتمنعني من دخول الجنة .

٢ - **لا آمن مكر الله تعالى** ، فذنوبي كثيرة، وربما تجمعت عليّ فكانت سبباً في انتكاسي وانقلاب حالي من الإيمان إلى الكفر ، ومن الهداية إلى الضلال ،

ومن استقامة إلى زيغ. فكم من مطيع اغتر بذنوبه وأعجب بأعماله الصالحة فكانت سبباً في هلاكه وتقلب أحواله. وفي الأثر: (ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه)[1]. وإني لا آمن مكر الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.

بل النبي ﷺ كان يكثر أن يقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[2]. فهذا رسول الله ﷺ يقول: ﴿ما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾[3]. وقال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾. وقال يوسف عليه السلام: ﴿أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾. وقال سليمان عليه السلام: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾[4]. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (لو وضعت قدماً في الجنة وقدماً خارجها لا آمن مكر الله تعالى). وبكى الإمام سفيان الثوري وهو يحتضر على فراش الموت، فعندما سئل عن ذلك قال: (أخشى أن أسلب التوحيد).

فكيف أجزم بعد كل هذا على نجاتي ودخولي الجنة؟! فقال: ﴿فعسى ربي أن **يؤتين**﴾، ولم يقل بالجزم والتأكيد (يؤتيني).

هذا اللفظ لاظهار ضعفه بين يدي الله جل وعلا، وأنه لا شيء أمام عظمته وجلاله. وهذا الأسلوب من هذا العبد المطيع لله تعالى المفتقر إليه هو الغالب

---

(١) رواه البزار.

(٢) رواه ابن أبي عاصم وصححه الحاكم والألباني.

(٣) الأحقاف (٩)

(٤) النمل (١٩).

عليه من خلال محاورته للكافر صاحب الجنتين كقوله له ﴿لكنا هو الله ربي﴾ بحذف ألف ﴿لكنا﴾ عند القراءة بالوصل إذ تقرأ بالوصل (لكن هو الله ربي). وقوله ﴿إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً﴾ بحذف ياء (ترني) فقال ﴿ترن﴾، وقوله ﴿أنا أقل منك﴾ بحذف ألف (أنا) إذ لم يقرأها بالمد (أنآ أقل) وإنما عند الوصل تقرأ بالحذف (أنَ أقل)، مع جواز قراءتها بالمد على أصلها . كل ما سبق من الأسلوب البلاغي في هذه القراءة تهميشاً لنفسه خضوعاً لهيبة الجلال.

صفحة المراجع

١ - القرآن الكريم .

٤- إرواء الغليل - للشيخ ناصر الدين الألباني .

٥- بدائع التفسير - لابن القيم .

٦- بدائع الفوائد - لابن القيم .

٩ - تفسير ابن كثير .

٨ -تفسير البيضاوي .

١٠- تفسير الجلالين .

٧ - تفسير القرطبي .

١١ - جامع بيان العلم وفضله-ابن عبد البر .

١٢- حاشية الجمل على الجلالين المسمى بالفتوحات الإلهية - لسليمان بن عمر العجيلي المعروف بالجمل .

١٣ - حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسمى بعناية القاضي وكفاية الراضي - للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي .

١٤- درة التنزيل وغرة التأويل - للخطيب الإسكافي .

٣- الدر المنثور للسيوطي .

٢ - الروض الريان - شرف الدين الحسين بن سليمان بن ريان .

١٥-سنن الترمذي .

١٦- صحيح الامام البخاري .

١٧- صحيح الامام مسلم .

١٨- صحيح ابن خزيمة .

١٨- غرائب القرآن ورغائب الفرقان - نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري .

١٩-فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن - لأبي يحيى زكريا

الأنصاري .
٢٠- كشف المعاني في المتشابه والمثاني - بدر الدين ابن جماعه .
٢١ - مباحث من التفسير الموضوعي . د . مصطفى مسلم .
٢٢ - ملاك التأويل - لأحمد بن الزبير الغرناطي .
٢٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور-برهان الدين أبي الحسن إبراهيم ابن عمر البقاعي .